مقدمة الكاتب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، والآمرين بالقسط من الناس.

وبعد . . لقد سبق لي أن قرأت هذا الكتاب أو هذه المرافعة، منذ نحو ثلاثين سنة، وكان قد أثار في نفسي تساؤلات عميقة، وإعجاباً شديداً في ذلك الحين، وأرى الآن ونحن على عتبى غليان شديد، وحديث لا ينقطع عن عودة الإسلام أو المسلمين إلى الساحة البشرية من جديد، كحملة رسالة ومنظور جديد للمشكلة الإنسانية، في عصر انتقال من الحياة التقليدية، التي عاشتها البشرية، إلى التطلع لنظام عالمي جديد..

وبكل التواضع والثقة، أرى أنه ينبغي أن أقدم وجهة نظري كمسلم يراقب الساحة العالمية كيف ينبغي للمسلمين أن يقدموا أنفسهم في هذا العالم الصاخب الذي اختلطت فيه المصالح والمغارم كما اختلطت التصورات، بين عالمين، عالم يملك القوة والمعرفة، ووسائل إيصال المعلومات وهو يحمل شعوراً مطمئناً، بأنه جدير بالامتيازات، وكيف سيقنع الآخرين بأن هذه الامتيازات طبيعية.

ومن الحمق والمغامرة الفاشلة، أن يتطلع أربعة أخماس العالم، إلى إمكانية التقليل من هذه الامتيازات أو التشكك فيها، فضلاً عن التطلع إلى أن هذا العالم، الذي نعيش فيه ينبغي أن تزول منه هذه الامتيازات، إذ كل من يتطلع إلى زوال الامتيازات، ينبغي أن يعرف أنه ليس من الصنف الذي يمكن أن يتحمل مسؤولية تسيير العالم، فليس لهم الحق في أن يبلغوا درجة الارتفاع إلى مستوى امتيازات تملك المعرفة وإنتاجها، فضلاً عن تطبيقات المعرفة، فلابد من أن يحتكر خمس العالم المعرفة وتطبيقاتها، ولابد من موافقة أربعة أخماس العالم على هذا الاحتكار والامتياز، وأن يعترفوا بأنهم ليسوا أهلاً لأن يتعلموا، ولا قدرة لهم على تحمل مسؤولية المعرفة، وأن هذه المعرفة وتطبيقاتها، لا يصلح لها غير خمس العالم الأبيض النظيف!! وأن كل من تسوره نفسه، بأن هذه الامتيازات ليست أبدية، ينبغي حمله على الاعتراف بأن هذا التصور وهذا التطلع هو وساوس سيئة، وينبغي استخدام كل وسائل الترغيب والترهيب، حتى يرفع من فكره، في أنه يمكن أن يكون، أهلاً للمعرفة، واستخدام المعرفة، لأن المعرفة واستخداماتها حكر على خمس العالم، ولا يكفي الاعتراف بهذه الامتيازات، بأنها مؤقتة، وقابلة للزوال، بل ينبغي أن تكون أبدية، وغير قابلة للزوال، ولا يكفي الاعتراف الظاهري، بل لابد من الإقناع والإيمان الباطني، بأن المعرفة واستخدامها، وحق الفيتو، وكذلك 80% من إنتاج العالم، ينبغي أن

يكون تحت تصرف 20% من سكانه، وأن كل من لا يرى أن هذا الوضع هو الحق السرمدي، ينبغي أن يُحمل على الاعتراف، ولا يكفي الاعتراف، لا ولابد من الإيمان، بأن هذا الوضع هو الحق الذي وافق عليه أهل الأرض والسماء، وهذا أسمى ما وصل إليه الناس، في تاريخهم كله، وأنه هو النظام العالمي الجديد، وكل من لا يردد ذلك مذعوراً خائفاً، وبدون تلكؤ وأن هذا هو إرادة (أبانا الذي في السموات) وهو ما أجمع عليه أهل الأرض، ينبغي أن يجعل عبرة لمن يريد أن يعتبر، وأن هذا النظام ليس في حاجة إلى شرعية من خارجه، لأن شرعية في ذاته.

أنا هنا في حاجة إلى شرح وضع بشري صعب الإمساك به، ووضعه تحت المجهر، إن الأمور ملتبسة وخفية، وصعبة الكشف، لا لأنها غير واضحة، بل المشكلة هي الوضوح والخفاء في آن واحد، كم كان اكتشاف حركة الأرض حول الشمس بدل أن نعتقد أن الشمس تدور حولها كم كان هذا الاكتشاف صعباً وخفياً، إننا نعيش أموراً كثيرة، بهذا الوضوح والخفاء، والموضوع الذي نحن بصدد بحثه هو من هذا النوع، الخفي الجلي في آن واحد.

وتساعدنا على إيضاح الفكرة، اقتباسات من د. علي شريعتي، الذي يبحث هذا الموضوع، في فصل من محاضراته التي طبعت بعنوان: الإنسان والإسلام.

ينقل من عمر مولود: ويقول: (إذا أردت أن تستخدم شخصاً، وتجعله مطيعاً، وتطمئن من وفائه لك، عليك أن تسلب منه شخصيته، لأنه إذا كانت له شخصية، لا يمكن أن يكون خادماً جيداً، ومن أجل إحكام التسلط على قوم ما، يجب أن تسلبهم شعورهم بالإنسانية، أو إضعاف هذا الشعور على الأقل، فالشخص ذو الشخصية، خادم رديء، ولكن فاقد الشخصية خادم جيد، ومطيع، ووفي، وسلس الانقياد، وما دام الشرقي يشعر بأنه ذو شخصية إنسانية مستقلة أصيلة ولائقة فمن غير الممكن أن يهز ذيله إلى هذا الحد.. يجب سلب شخصيته التي تمنعه من الاعتراف بنا، وما دام هذا الإنسان يقول: أنا شخص محترم، وذو كرامة في منطقتي ومحلتي..

والناس لا يتوقعون مني الاعتراف ويطمئنون إليّ، وأنا موضع أسرارهم جميعاً، فإن كل ما تعمل معه لا يجدي نفعاً، تأخذ منه ماله لا يقول شيئاً، تجلده لا يقول شيئاً، لماذا؟ لأن له شخصية، هي التي تمنعه من الاعتراف، إن هذه الشخصية الإنسانية والاجتماعية التي يشعر بها لنفسه ولقومه هي التي تمنعه من الاعتراف بنا، ويجب

سلبها منه يجب أن أشعره بفقدان هذه الشخصية، وعندما سيعرف بأنه لا شيء، وسوف يأتي بنفسه، ويقع على قدمي ليقول: يا سيدي كل ما أردته مني أؤديه، وكل ما تقول أفعل)..

ويقول عن كاتب إفريقي: (إن هناك تناقضاً موجوداً بين رابطة إنسانين، بين رابطة مجتمعين بشريين يمثله التناقض الموجود بين الأم والولد، هو أن الأم تحقر ولدها، تضربه، تنفيه، والولد من أجل أن يبقى في أمان من غضب الأم، من أجل أن لا يقع موضع احتقار أمه وضربها ونفيها يلوذ بأمه، ويلتصق بحجرها، والأم بعد ذلك لا تنفيه، لماذا؟ لأنه بعد هذا، ليس بذلك الطفل الفضولي، في مقابل أمه قد نفى الابن شخصيته الأولى المستقلة.. هذه الشخصية كانت مورد هجوم الأم، ومن أجل أن لا يكون موضع هجوم الأم وإهانتها يلوذ بها، من أجل أن يكون في أمان..

فرابطة إنسانين مجتمعين، الشرق والغرب من نيتشه، إلى هيجل، إلى فرويد، إلى رينان، يقول شيرعتي: أنا شاهدت هذه الفاجعة بعيني في جامعة كجامعة السوربون في باريس، وفي القرن العشرين: يقوم السيد الدكتور في الطب، فيكتب رسالة الدكتوراه حول القياس بين خلايا دماغ كل من الأسود والأبيض، ويجلس عدد من الأساتذة الكبار العالمين المشهورين،، ويمنحون هذا السيد شهادة الدكتوراه..هكذا يضفون على مثل هذه الفاجعة الجاهلية البليدة.. صفة علمية، وفيزيائية، ونفسية.

السيد هيجل.. يقول: إن الإله لم يكن واعياً، ثم دخل في الطبيعة، ثم دخل في النبات، وبعد النبات نما ودخل في الحيوان، ثم دخل في الإنسان، ودخل في الإنسان الغربي ثم تكامل في الجرماني، ثم تكامل في بلد الألمان، ودخل في هذه الحكومة التي تحكمنا الآن..

السيد زيغفريد أستاذ جامعة وعالم اجتماعي معروف، وعضو الأكاديمية.. يقول: (نفس الشخص الفرنسي، هذا المتوسط العادي العامل، ذو العينين الزرقاوين، والشعر الأشقر، يتمكن من إدارة جهاز إداري عظيم، وتأسيسات عظيمة في الشرق،، ببساطة، بينما إذا ذهبت إلى الشرق، ترى الشخصيات العظيمة المفكرة، تعجز عن إدارة جهاز ذي ستة عمال، لماذا؟ .. لأن الدماغ الغربي دماغ إداري مدني، والدماغ الشرقي، دماغ عاطفي وشعري وعرفاني، حتى الثياب، ليس لنا في حق أن نلبس ما نريد، لأن الثياب والاستهلاك له صلة بالذوق، والمجتمع، والشخصية القومية، والدينية، والتاريخ والثقافة، والفن والجمال، إذن يجب إبادة جميع هذه الأمور ليتحول هذا السيد، هذه السيدة إلى مجسمة، نلبسها كل ما نصنعه، ونتمكن من أن نضع في حلقومها كل ما أعددناه، وهي لا تقول أحب أو لا

أحب، عليك أن تحبي كل ما نحب، هل أنت إنسانة، حتى تقولي أنا أحب أو لا أحب، أنت فارغة من نفسك، أنت لم تكوني أنت، عليك ألا تنطقي بكلمة أنا، وكما ترى فنحن لا نستعملها)...

انتهى ما نقلته من شريعتي باختصار..

ومحمد إقبال لـه ديوان بعنوان الأسرار والرموز.. أي أسرار إثبات الذات، ورموز نفي الذات، يعالج الديوان هذا الموضوع.

والذي أريده من هذا كله هو أن أنبه إلى أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة كبيرة في التكيف وصلابة أيضاً ضد التغير، وأن المجتمع لـه أساليب معروفة أو قابلة للمعرفة في صياغة نموذجين من الإنسان، نموذج الإنسان الكل، ونموذج الإنسان العدل، الإنسان الكل، الإنسان الشيء، الإنسان الذي يجعله المجتمع يؤمن بأنه خلق، ليطبع، ولا يعترض، ولا يميز، ولا يقول عن شيء هذا خطأ، وهذا صواب وأن ما رآه سيده، حسبه، أن يكون لـه سيد يفكر عنه ويفهم بدلاً عنه.

ومجتمع آخر يمكن أن يصنع من الإنسان، إنساناً يرفض القسر والقهر والإكراه، يفتح أمام الإنسان، مجالاً للتفكير والإبداع، يطعي له حق الاختيار، والتمييز، ويحرره من عبودية المجتمع، حتى إن الله في مثل هذا المجتمع يجوز الاعتراش عليه، ورفض دينه ووصاياه ومع ذلك يبقى للمعترض حق البقاء محترماً ويستحق العدالة، وحتى الله في مثل هذا المجتمع يوافق على هذا حيث يقول: (لا إكراه في الدين) و(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين.. أن تبروهم وتقسطوا إليهم.. إن الله يحب المقسطين) إنها لمرحلة انقلابية أن يدخل في حياة البشر تصور مسؤولية فردية يرى فيه الإنسان إمكانية الخروج من قسر المجتمع، وأنه يمكن للفرد أن يتصور نظاماً، غير ما يحدده المجتمع، إن هذا التصور صعب، حتى في أيامنا هذه، فكيف في سالف الأيام، أنه لم يكن سهلاً تصور نظام أعلى للكون، غير تصور المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

إني اشعر بفقر في الفكر والبيان، حين أتناول موضوعاً كهذا، ولا أتمكن من توضيحه وتجليته، فأضطر لتركه في الغموض، والظلام، كيف نعيش؟ هل لنا حق في أن نفكر خارج ما يقال لنا؟ هل لنا حق في التساؤل؟ هل نحن محكومون بقوالب لا يمكن أن نحيد عنها؟ كان الصينيون يضعون الأرجل في قوالب صغيرة لتظل القدمان صغيرتين بعد أن يكبر الإنسان.

ولكن هل يمكن أن نتصور، أن يوضع وعي الإنسان، في قالب، بحيث لا يمكن أن يتجاوز حده، وأن لا يفكر فيما ليس بمسموح له بالتفكير فيه، على ضوء هذا التصور يمكن إعادة النظر في الآيات

التي يذكرها القرآن عن وصول الإنسان إلى حالة العجز التام عن استخدام سمعه، وبصره، وعقله، وحالة الوصول إلى أن يرى السيئة حسنة.

فلابد من دراسة هذه الآيات، دراسة جدية وجديدة، وإني سأحاول ذكر حالة أو حادثة لعلها تساعدنا أن نفهم المشكلة بشكل أفضل أو أوضح قليلاً في أبعادها المأساوية: حدث في قرية مجاورة لنا، أن فتاة وقعت في الخطيئة، فانكشف الأمر، فاستجارت ببعض معارفها، فذهب أخوها وقتلها، وسلم نفسه، وسجن بضعة أشهر، ثم أفرج عنه، وعادت الأمور إلى مجاريها مرة أخرى، كأن لم يحدث شيء، هذه هي خلاصة القصة.

وأظن أن هذه القصة ليست غريبة، بل وكثيرة الحدوث، ويمكن أن ي1كر كل واحد عدة قصص من أمثالها، تحدث في بلادنا والبلاد المشابهة لها، ولكن هل يمكن أن نتأمل القصة قليلاً، أولاً هل يحق لنا أن نفكر في هذا الموضوع؟ أم ينبغي أن نسمعها كما هي، ثم ليس لنا إلا أن نسكت..

إني أتمنى أن يتناول مثل هذا الموضوع متخصص اجتماعي، ومتخصص في الشؤون الإنسانية، والتاريخية، من جوانبها الكثيرة ومتخصص في تطور القانون، لا كقصة مأساة متصلة بالغريزة فقط..

أولاً ينبغي أن أقول إنه في العادة نحضر الجنازات كتقليد في مجتمعنا، ولكن في هذه الحالة لم نبلغ عن جنازة، وإنما وصل الخبر بشكل مقتضب، ولم يخطر لنا أيضاً أنه ينبغي أن نحضر الجنازة، أن نذهب للعزاء، ولما قابلت والدها بعد ذلك - وهو شخص محترم في القرية- وربما لأنه محترم ارتكبوا هذا الفعل ليحتفظوا بالمكانة والشرف، لما قابلته وقعت في حرج، هل أتجاهل الموضوع كلياً؟ أم أعزيه أم كيف أطرق هذا الموضوع!!

في الواقع، لا أذكر الآن جيداً، ماذا قلت له، ولكن لم أتجاهل الموضوع، وكانت كلماتي شبه مواساة خجولة على مصيبته وحاولت أن أخفف من المصيبة وكانت تراودني أفكار متناقضة شائكة، وتقبل هو مواساتي، ولكن لم تمت الحادثة في نفسي، وظلت تطاردني، وخاصة كلما قرأت أو فكرت في كيف ينتج المجتمع مفاهيمه؟؟ وكيف يحميها؟ وكيف ينقلها إلى الأجيال؟ هذه الحادثة نعيشها، ولكن هل لنا أن نفكر مم تتركب؟ من الذي له الحق في التحدث في هذا الموضوع؟ ومن الذي إذا تحدث في هذا الموضوع يؤخذ كلامه بجدية واحترام؟ وهل أنا لي الحق في أن أتناول هذا الموضوع؟ وما

هي الخلفية التي تجرئني على تناول هذا الموضوع؟ وهل سيعتبرني المجتمع حين أتناول هذا الموضوع مخرباً للمجتمع ومنتهكاً لحرماته؟ أم سينظر إليّ بأني أعمل لصالح المجتمع؟ وما هي الخلفية التي ستحميني حين أتحدث عن هذا. وما هي الحيثيات التي يمكن أن أعتمد عليها حين أتحدث عن هذا الموضوع، وأتساءل من سيحميني؟ وإلى أي مرجع سألتجئ؟ هل لي حق أن أتساءل وأقول هذه المؤودة بأي ذنب قتلت؟ على أية شريعة يعتمد هذا الوأد المعاصر؟ وهذا القاضي الذي أفرج عن الذي غسل العار!!؟ على أي قانون اعتمد والحاصل إن هذه الحادثة لم يستطع أن يعترض عليها أحد، لا اليمين، ولا اليسار، ولا الوسط، ولا المتدينون، ولا النساء، ولا الرجال، ولا الأقارب، ولا الأباعد، إجماع تام، وسكوت مطبق، حتى الوالدة، ربما قمعت غريزة الأمومة، فلم تستطع أن تعترض وحتى شرع الله أو ممثلو شرع الله لم يستطيعوا أن يعترضوا على هذا، مع أن الشرع حكمه شيء رمزي في هذه الحالة بالنسبة للعقوبة التي نفذت، هل لي حق أن أقول هذه العقوبة التي نفذت، وتقبلها الجميع، تقبلها القانون، وتقبلها المجتمع بجميع طوائفه، وهل ممثل الشرع استطاع أن يعترض استناداً إلى نصوص صريحة؟ لماذا حتى الشرع لم يستطع أن يعترض؟ لماذا لم يفكر أحد بالشريك في الخطيئة؟ ماذا ينبغي أن يفعل به؟ مع أن الشرع يسوي بينهما، ما قيمة الشرع؟ وما قيمة الله إزاء ما يفرضه المجتمع ويقره المجتمع إزاء الامتيازات التي يعطيها المجتمع لبعض الأفراد ويحرمها آخرين، كيف وجد هذا الوضع؟ ولماذا هذا الإجماع على الكيل بمكيالين؟ وكيف صار عدم المساواة مقبولاً إلى هذه الدرجة العميقة؟ هذه عينة من هذه المشكلة الجلية والخفية في آن معاً.

إن النظام العالمي الجديد شبيه بهذا، يريد أن يقر شرعية من هذا النوع، يميت من يشاء ويحيي من يشاء!! وليس لأحد حق أن يفهم الأمر على وجه آخر، هل لي حق أن أفهم؟ هل لي حق أن أتساءل وأقارن؟ هل لي حق أن أتشكك؟ حتى معنى العدالة ينبغي أن يمسخ، حتى غريزة القرابة ينبغي أن تنسى، ينبغي أن يمحى التاريخ والذاكرة، ينبغي أن يمحى كل شيء، ما عدا امتيازات الممتازين، الوجود كله ينبغي أن يسجد للامتيازات، ولكن البشر من طينة تحب المعصية، وهيهات أن يطفأ لهيب الشوق إلى المعرفة، وهيهات أن يقمع إلى الأبد حب الاستطلاع.

الشيء الذي أريد أن أبرزه هنا، أن هناك قرنوناً اجتماعياً حديدياً جباراً يحكمنا جميعاً، ولا قدرة لنا على إعادة النظر فيه، وإعادة التفكير فيه، وأنا لسنا أحراراً في أن نفكر في هذا الموضوع، حتى

أنـي أشـعر أن شـبح الاسـتنكار يطـاردني كـأني أدافـع عـن الفاحشـة، وكأن الله تعالى لم يكن غيوراً بما فيه الكفاية حين شرع هذه العقوبة (الخفيفة الهزيلة)!! ولكن هذا المجتمع مع المخطئ، ولا يتسامح مع المخطئة، والنساء هل لهن أن يفهمن أنهن مثل الرجال عند الله في هذا الموضـوع بالـذات، مـن هـذه الوقحـة التـي يمكـن أن تفهـم هـذا الموضـوع؟ هل لها حق أن تفهم شرع الله؟ هل لنا جميعاً أن نفهم؟ إن قانوناً جباراً يحكمنا، وجاذبية ساحقة تخضعنا وتخضع تفكيرنا، ما هذه القوة الجبـارة التـي تحرمنـا ولا تـدع لنـا منفذاً للتفكيـر فيـه، هـل يمكن لنـا أن ننتزع أنفسنا لحظـة لنقف فيهـا ونتفكر؟ هل يمكـن أن نكشف هذا السلطان المسيطر علينا وهل لـه نظائر؟ إن هذه القوة، أقوى مـن القـانون الإلهـي الـذي أنـزه الله، ولعلـه هـو القـانون الكـونـي الذي أبدع الله عليه المجتمع.

إذا عرفنـا قوانينـه وسـننه، يمكـن أن نسـخرها لصـالحنا، فهـي ليسـت سلبية كليـة ولا إيجابيـة وإنمـا هـي طاقـة مثـل الطاقـة الكهربائيـة، قـوة قابلــة للانفجـار، وقــوة قابلــة للضــبط والتسـخير، فهــي نعمــة حــين نكشفها، ونقمة حين تجرفنا، ولا نسيطر عليها ولا نقدر على وعيها.

هذا مثـل حاولـت أن أعرضــه، لأنبـه إلـى بعض مشكلات المجتمـع، فهنـاك مشكلات غير قابلـة للمسـاس بهـا، لأنهـا ملتهبـة أكثر، أتركهـا بعد أن أثير التنـافس للبحـث عنهـا وألهـب حـب الاسـتطلاع لمغـامرة اقتحامها.

التوراة في مقدمة سفر التكوين، تذكر أن الإنسان أكل شجرة المعرفة فـارتفع بـذلك قـدرة وطمـع فـي أن يأكـل مـن شـجرة الحيـاة (أو شـجرة الخلـد) فوضـعت حراسـة شـديدة علـى شـجرة الحيـاة حتـى لا يسـهل الوصول إليها، (ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة)

لعلنـا يمكـن أن نفهـم مـن هـذا كـم هـو صـعب الاقتـراب مـن شـجرة المعرفـة، إننـا نحـس أن الفهـم والمعرفـة، والإدراك محجمـة ومعاقـة، ومقزمة، وأنها محروسة بلهيب متقلب لحراسة شجرة المعرفة، فضلاً عن شجرة الخلد!

إن الإنسان سخر المادة، فدخلت معرفته إلى نواة الذرة، فاهتدى إلى ملك من الطاقة لا يبلى، وعرف سنن الحياة، فقضى على الأمراض، وزاد من معدلات الأعمار، ودخل إلى جوف الجينات، فانكشفت له أشياء لا يمكن التكهن بعواقبها.

فهـل لشـبابنا أن يـدخلوا إلـى معرفـة سـنن المجتمـع، ليحررونـا مـن الأصار والأغلال هل لنا حق في الفهم؟ هل لنا حق في أن نطالب بميـزان ومقيـاس للفهـم فـي مسـتوى المجتمـع المحلـي؟ وفـي مسـتوى المجتمـع العـالمي؟ فـإذا كـان لـيس لنـا الحـق فـي مسـتوى المجتمـع

المحلي؟ فمن باب أولى أن لا يكون لنا الحق في المجتمع العالمي، لأن حسن المساواة الأولية قد دمر من زمن بعيد لصالح حس الامتيازات ولصالح الأقوياء دائماً، الوقي هو الذي يضع المقاييس والأوزان، وله الحق في تعديلها، سواء أكان الرجل مقابل المرأة، أو الأبيض الذي ليس بأبيض.

في الإنجيل كلمة، تقول هذه الكلمة: (تعرفون الحق والحق يحرركم) ماذا تعني هذه الكلمة؟ أظن أنها تعني (المعرفة قوة محررة) هل يجوز للبشر أن يطعموا من هذه الشجرة؟ هل لكل البشر الحق في أن يذوقوا هذه الثمرة؟ .. والنظام العالمي الجديد هو لحماية هذه الشجرة، وإبقائها حكراً للأبيض الذي لا يمثل إلا 11% من العالم، ولهيب سيف متقلب لحماية شجرة المعرفة..

في مجلة رسالة اليونسكو /يونيو 1990 ص 27 هذه العبارة التالية: استوح منها ما شئت، (وفي حوالي عام 2000 لن يشكل ما اتفق على تسميته الجنس الأبيض سوى 11% من سكان الكرة الأرضية، ولا يستبعد أن نتصور حدوث مواجهة، بين الجناح الراديكالي في العالم الإسلامي وبين ما يتبقى من الحضارة المسيحية، ويبدو أن صراعاً من هذا القبيل لا مفر منه)

لماذا لا مفر منها؟ هل لي الحق أن أحلل وأفسر؟ لماذا هذا البروفسور الحائز على جائزة نوبل في الأدب متشائم إلى هذا الحد؟ لماذا لا مفر من الصراع؟ لماذا الطريق إلى الحل المسدود؟ لماذا هذا التشاؤم؟ لست أنا مبتكر هذه المصطلحات والإحصاءات، والتخوفات، لماذا التخوف؟ هل لنا حق أن نحلل ونكشف ما في باطنه؟ لماذا يخاف صاحب (النوبل)؟ هل البريء يخاف؟ ولماذا يشعر أنه غير بريء؟ ما هو الذنب الذي ارتكبه (يا مستر جوزيف) حتى تخاف؟ إنه لا يثق إلا بنفسه، إنه لا يثق بالإنسان! إنه يرى أن 89% من البشر لا يوثق بهم لأنهم ليسوا بيضاً، لأنهم ليسوا أهلاً لتحمل المسؤولية، هو وحده الذي يفهم، هو وحده الأمين على سر المعرفة، لا يؤتمن على سر المعرفة غيره، ولكن سر المعرفة يتسرب ويضطرب العالم والمقاييس والموازين التي صنعوها، ويعلم كم هي هشة (هذه الأمم المتحدة) التي يذخرونها للنظام العالمي الجديد، وكم تزلزل هذا الجهاز العنكبوتي عند اشتداد الأزمة، فلم يكن إجماعه يغني فتيلاً، وكان حق (الفيتو الحقيقي) في محور آخر غير محور الشمال، كانت كلمة لا وكلمة نعم في الجنوب ولم تكن في الشمال، فسواء استخدم أهل الجنوب حقهم أم لم يستخدموا، فإن حق (الفيتو) نزل إلى محور الجنوب ورصيده في الجنوب وليس في الشمال، كل

هذه الأمور هي التي تجعل رجلاً يحمل جائزة نوبل في الأدب، يخاف ولا يرى مفراً من الصراعات، إن أصحاب الامتيازات، إن الأرستقراطيات لا يمكن أن تتصور عالماً يتساوى فيه الناس، إنه عالم غير قابل للسكنى، نعم يا سيد (برودبسكي) هناك عالم تعداده 89% من الناس، وإن لم يكونوا بيضاً يرون أن العالم قابل للسكنى، وسيكون عالماً جميلاً أكثر وأسعد وبدون صراعات!

ستزول الصرعات والصراعات، ولكن سيظل التنافس لجعل هذا العالم أفضل، إن العالم الجديد الذي يريده البيض عالم مستحيل، مستحيل أن يمكن حماية اللامساواة والظلم بالقوة، مهما كبرت.. أليس في (السوفيات) عبرة؟ فهل الرؤوس النووية الأمريكية عندها مناعة ضد الظلم، أمثر من الرؤوس النووية السوفيتية؟ إنها من نفس الطينة، لا يمكن أن تحمي الظلم فستسقط كل القوى التي تحمي الظلم وتمنع العدل، إنها عبرة التاريخ البشري وانتصار إرادة العدالة بأبي أنت وأمي يا سيدي يا رسول الله إنك كنت أعظم من يقرأ التاريخ حين قررت خلاصة التاريخ كله في كلمة واحدة، (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد)[1] إنه صلى الله عليه وسلم لم يتأسف على الجنس الأبيض أو الأسود، ولم يخف على مصير البشرية، ولم ير التاريخ مظلماً، بل مشرقاً، ورأى مشكلة التاريخ في العدل، ولم يكن متشائماً، بل كان موقناً أن العدل هو الذي سينتصر وأن الظلم هو الذي سيندثر.

وأن الشرعية هي العدل، وحيثما كان العدل فثم شرع الله.. فثم البقاء..

(ليس بأمانيكم، ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً).

أيها المتبعون في العالم استبشروا ولا تيأسوا، لقد اقترب ملكوت الله منها.. هي نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم برزت من عالم الغيب إلى عالم الشهادة لم يقل قال الله، وإنما قال: قال التاريخ.. التاريخ مظهر لتجلي قانون الله تعالى، والقرآن الكريم يأمر بتأمل عاقبة الذين خلوا من قبل، إن الأمم السابقة هلكت لأأنها لم تعدل، ونحن نعرف أن 11% من الناس الذين يسيطرون على 89% لا يعدلون، ولكن ينبغي أن نعلم أن العيش ضمن الامتيازات يعطل الفهم، وقوة

[1] البخاري.

الإدراك عند البشر، فهذا الذي حذرنا الله ورسوله بالمعنى القائل: انظروا الماضي والحاضر وانتظروا المستقبل، لتعلموا أن سنة الله أو قانونه لن تجد له تبديلاً، ولن تجد له تحويلاً.

الشرعية هي التي يشهد لها التاريخ، الشرعية ليس ما يقرره 11% من العالم، ولا ما يخضع له 89% من العالم. الشرعية ما يقرره التاريخ الذي ليس له إلا ميزان واحد (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

هذه هي الشرعية التي لا يمكن التلاعب بها، يمكن أن نفتري على الله، يمكن أن نشوه الوقائع ولكن لا يمكن التلاعب بالعواقب، التاريخ لم يخطئ هدفه خلال سيره، وهو يعرف كيف يسير: (والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

هذا الإنسان المخلوق الأخير في هذا الكون، تاريخه يدل على أنه تجاوز العقبات مهما تعثر في الطريق، إنه سيسحق ما علم الله فيه وجهلته الملائكة، حين اتهموه بأنه سيفسد في الأرض وسيسفك الدماء، كثيرون في التاريخ كانوا يستجيبون لتوقعات الملائكة، ولكن الذين يتجاوزون العقبات هم الذين كانوا يتلمسون ما علم الله فيهم.

إنهم سيقيمون في الأرض دار السلام (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم).

والمرافعة التي نحن بصدد دراستها، موضوعها الشرعية: لمن الشرعية؟ لمن الطاعة؟ وكيف نحقق الشرعية؟ وما هي حدود الطاعة؟

إن هذا الموضوع مشكلة إنسانية خلال التاريخ كله، وكلما تقدم التاريخ، يثار هذا الموضوع بإشكالية أكبر، والآن ما هي الشرعية؟ وماذا قال (مولاي محمد علي) في هذا الموضوع؟ وماذا يمكن أن نقول في هذا الموضوع؟ وماذا يمكن أن يقول من يأتي بعدنا في هذا الموضوع؟ ثم كيف واجه محمد صلى الله عليه وسلم هذا الموضوع؟ وكيف يمكن إضاءة المواجهة التي واجهها محمد صلى الله عليه وسلم على مر التاريخ؟.

في البدء لا يمكن أن يعيش الناس بدون شرعية، كأن مشكلة الشرعية لم تبرز في الحياة الإنسانية بإلحاح، إلا بعد أن تعلم الإنسان الزراعة، لأن دخول الإنسان في عهد الزراعة هو الثورة الإنسانية الكبرى، لأن الإنسان قبل الزراعة، كان مثل بقية

المخلوقات، التي لا تنتج غذاءها، وإنما تأكل من الطبيعة، فكان كسائر المخلوقات.

ولكن لما تعلم الزراعة، خرج من أسلوب بقية الحيوانات. ولعل معنى الشرعية، ومعنى الحرام (التابو) الممنوع، بدأ يشكل مشكلة إنسانية حين زرع، إن الشجرة المزروعة لم تعد مثل بقية الشجرات، إنها اكتسبت مفهوماً جديداً، هذه الشجرة المزروعة صارت محرمة قربانها بدون شرط.. لقد دخل الإنسان مرحلة تقسيم العمل، ودخل عهد إنتاج غذاء أكثر من قِبل عدد أقل، فوجد وقت الفراغ للإبداع في مجالات أخرى، ولكن المشكلة الأساسية الشرعية، كيف نتعامل مع هذه الشجرة؟ وكيف نبقي على العدالة في عهد الزراعة، لأن الزراعة نعمة كبرى لا يمكن الرجوع عنها، ولابد من التكيف معها، ولا يمكن التكيف إلا مع العدل، فكيف يمكن إقامة العدل؟

الإنسان حين زرع الشجرة، صحيح أنه أكل مما زرع، ولكن كشف الزراعة بالملاحظة، تأمل ما حوله فوجده خاضعاً لقانون، وجد بالمراقبة أن هذه البذرة التي يلتهمها يمكن زراعتها.

لما دخل عالم الزراعة، دخل عالم المعرفة قبلها، فكأن الشجرة المزروعة نتيجة جهد المعرفة، المعرفة هي التي استنبتت الشجرة، والمعرفة هي التي ستعلم كيفية العيش مع الشجرة.. القصة طويلة وشيقة، ومأساوية في آن واحد.. منذ عشرة آلاف سنة تعلم الإنسان الزراعة واستأنس الحيوان، واسترق الإنسان الإنسان، وصار الإنسان جزءاً من الأرض يباع في الأرض، وخلال العشرة آلاف سنة عاش الإنسان مأساة التكيف مع الزراعة، ولم يتكيف، وظل الإنسان يستعبد الإنسان، وقلة من البشر يعيشون بترف على أكتاف عدد كبير من الناس..

واكتشف الناس الكتابة، وتراكمت المعرفة، وشعت مشكلة أن الإنسان جنس واحد، فقبل ذلك من قبله، ورفضه من رفضه، وجاءت الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس ليكونوا إلى جانب وحدة الإنسانية، أخذوا شيئاً فشيئاً بمعاناة شديدة أخذ يترسخ معنى العدالة والشرعية، وكان أصحاب الامتيازات دائماً ضد وحدة الإنسانية وضد معنى العدالة، وكان أصحاب الامتيازات، (أبناء الله وأبناء السماء).. ولكن الأنبياء والآمرون بالقسط من الناس، قالوا: نحن جميعاً أبناء الله، وأما أنتم لستم أبناء الله أيضاً، (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) .. (اذهب إلى فرعون إنه طغى).

ولما دخل البشر عهد الثورة الصناعية، صارت الإشكالية أكبر، لأن حجمها صار أكبر، فصار في الإمكان أن ينتج عدد قليل ما يكفي عدداً كبيراً..

وبـدأت منافســات شـديدة، بـين أصـحاب الامتيـازات، إلــى أن زال التنافس بينهم، وتضامنوا للمحافظة على الامتيازات، والقصة معروفة وواضحة، ولكنها أيضاً خفية، لم تكشف بعد بوضوح مبسط جلي، إن هذا الغموض والخفاء هو الذي يمكن أصحاب الامتيازات من الاحتفاظ بامتيازاتهم في العالم، وعلى الآمرين بالقسط من الناس أن يوضحوا هذا، وحين يتضح هذا فسيبطل السحر، ومع الثورة الصناعية، بدأت الطباعة فكانت الانقلابات البشرية، وظهور الديمقراطيات في الحياة الإنسانية، وإن كان لم يتكيف معها إلا الذين ملكوا المعرفة، المعرفة هي التي زرعت الشجرة، والمعرفة هي التي اهتدت إلى استئناس الحيوان، والمعرفة هي التي يسرت وسائل المعرفة، والإنسان صار يساوي المعرفة، وعلى قدر معرفتك أنت إنسان، وعلى قدر معرفتك أنت حر على قدر معرفتك تستحق العدالة، وتحقق العدالة، وما دام هناك جاهل، هناك إنسان لم يستأنس بعد..

ولإبقاء الامتيازات لابد من احتكار المعرفة، بلهيب سيف متقلب.

في الحرب العالمية الأولى كان النزاع بين أصحاب الامتيازات، لأن نصيب بعضهم كان أقل من نصيب البعض الآخر..

والإشكالية الكبرى أن الجهل يمكن أصحاب الامتيازات من التلاعب بالشرعية، فالجاهل يمكن التلاعب عليه، ويمكن استخدامه ضد مصالحه، يمكن أن يخون نفسه عن جهالة، يمكن أن يكون أداة لأصحاب الامتيازات، هذا ما كان يحدث في العالم، حين رفع (مولانا محمد علي) الهندي صوته ودخل الصراع مع اللهيب الذي يقوم في العالم، كيف دخل محمد علي؟ وماذا حدث له؟ إنه شاهد إخوانه يجندون للحرب لصالح أصحاب الامتيازات وألمانيا هي المحرومة آن ذاك من المستعمرات، كانت المنافس الحقيقي، وتركيا التي كانت تمثل العالم الإسلامي، والبقية الباقية من اسم الخلافة الإسلامية – الرجل المريض – الذي هو موضع النزاع الحقيقي حاولت أن تكون مع الحلفاء، ولكن رُفضت لأنها الفريسة التي يتنازع عليها فاضطرت أن تكون مع ألمانيا. (ومحمد علي) المسلم الذي يحاول قد الاستطاعة أن يكون مسلماً، وأن يكون مدركاً في بعدها الإنساني أعلن أنه لا يجوز للمسلم أن يتجند مع الإنجليز، الذين يستعمرون الهند للحرب ضد المسلمين الأتراك.

هنا أشعر أنه يجب أن أنبه إلى شيء: وهو أننا وخاصة الجيل الناشئ لا علم له، وأنا بالذات لا أعلم لي بالتفاصيل، ماذا حدث في الهند، هذا العالم الضخم ولماذا كان (لمحمد علي) هذه المكانة؟

وماذا حدث بالضبط وبالتفصيل؟ ومن هو محمد علي هذا؟ ولماذا دفن هذا الهندي في بيت المقدس، وماذا حدث للهند، وماذا حدث لخلفاء محمد علي؟

المأساة التي نعيشها نحن المسلمين مأساة معرفية، مأساة مرجعية، مأساة تسهيل المراجع، وما لم نكوّن الأداة المعرفية، ما لم نعد كتابة التاريخ من وجهة نظرنا، ونجعله ميسراً لنا، وسهل الرجوع إليه، ونتناوله، لن نخرج من التيه.

إننا لم نكون جهاز معرفتنا الذي يمكننا خلال ساعات قليلة من معرفة محمد علي والمجتمع الذي كان يمثله، مشكلتنا مشكلة معروفة، وليس مشكلة خصوم أقوياء، إلى الآن لم ندرك الأمر، لا تزال لجهلنا المطبق نظن أننا يمكن أن نحمي أو نحرر أنفسنا بالسلاح الذي نشتريه مقتطعين ثمنه من لقمة الخبز ومن ثمن الكتاب، نشتريه بأثمان باهظة.

ثم لا يلبث أن يتم تدميره بسرعة لنعود ونشتريه مرة أخرى بأثمان أغلى، أننا ومحمد علي، والعالم الإسلامي، المعرفة عندنا شيء ثانوي، لم نتوجه إلى المعرفة ولم نجعلها من أولوياتنا، وجاءت الحرب الثانية، وكانت بين من يملكون المعرفة، لأنهم –مع أنهم ملكوا القدرة– ولكن البعض استأثر بالامتيازات والمستعمرات وسخرت مرة أخرى أبناء المستعمرات في حرب الامتيازات، ولكن العالم الجديد، النظام العالمي الجديد هو أنه حصل تفاهم بين من يملكون المعرفة وصاروا صفاً واحداً وإن كانوا يتجاذبون الامتيازات إلا أنه متفقون فيما بينهم ويعرفون الحدود التي يلتزمونها.

النظام العالمي الجديد هو أن الحروب توقفت بين أصحاب الامتيازات، واتحدت مصالحهم، والمواجهة صارت بين 11% الذين لا يرون العالم إلا سوقاً وطاقة ومواد خام فقط، وليس إلا، ويجب حماية هذا الوضع إلى آخر رمق، وكل من يرفض هذا الأمر الواقع سنئده، سندفنه حياً، وبمعونة إخوانه، وسوف لن يتمكن أحد من أن يظهر حزناً، أو عطفاً، أو شفقة، سندفنه برضى أمه وأبيه، وسنقتله بيد أخيه، وأيكم يجرؤ أن يفتح فاه إلا بتحميد النظام العالمي الجديد هذا..

من هذا الوقح الذي له حق الإنكار؟ إنه يدافع عن العار الذي ينبغي أن نزيله بكل فخار!!

إن (مولانا محمد علي) اعترض على هذا الأخ الذي يقتل أخاه وأخته في سبيل المتكبرين في الأرض، في سبيل المترفين، في سبيل أصحاب الامتيازات، في سبيل من حوّل العالم إلى سوق، وطاقة،

ومواد خام، وكل من يعترض على هذا ينبغي أن يقدم إلى المحاكمة، بتهمة الخيانة العظمى.

كان (محمد علي) يعتمد في المرافعة على حرية الرأي، حرية العقيدة، يقول:

ما التسامح بعد كل ذلك؟ إنه كما ورد في القول المشهور: (سيدي إنني أخالف كل كلمة مما ذكرت، ولكنني سأقاتل لآخر قطرة من دمي دون حقك في أن تقول ما تريد)

ذلكم هو التسامح . . . . وإلا فلا معنى للتسامح. . . .

(إذا ما أعطاك رجل أو هيئة من الرجال ضماناً لتحمل بحرية آراءك الخاصة وتطبقها فإنني أعتقد أن من واجبهم أن يلتزموا ذلك الضمان..

إننا نبتغي حقنا في التمتع بحماية القانون لعقائدنا وتعاليمنا الدينية المتميزة، ولتندم الحكومة فتقول قد رأينا خطأ سبيلنا..)

"هل الحكومة ملتزمة في إطلاق حرية العقيدة؟"

"أم أنها ستقول: كلا إننا أقوياء، إننا أشداء، إن لدينا مدمرات، إن لدينا طائرات.. إننا قد دحرنا أقوى أمم أوروبا.. وفي حلفنا ست وعشرون دولة، وكذلك رجال الهند وأموالها وسائر مواردها.. فلا يمكننا التسامح حيال آرائكم وتكاليفكم الدينية"..

"في قانونهم (حرية العقيدة) وفي قانونهم (من يدعو القوات المسلحة للتمرد على الأوامر خيانة عظمى)

ومحمد علي بمهارة يبرز التناقض، إما إلغاء حرية العقيدة، وإما قبول دعوة الجنود أن يطيعوا الله الذي يؤمنون بتشريعه ويعصوا الملك أو الملكة أو القانون، وبمهارة كبيرة وحذق رائع، أظهر التناقض الموجود في قوانينهم، ومحمد علي كما يظهر من المرافعة حاضر البديهة سريع الجواب، شديد الإيمان، كبير الوثوق بدينه، وبالقضية التي يترافع عنها.

لأجل أن نفهم الموضوع بشكل أوضح، ينبغي أن تعرض القضية بشكل آخر، ونضع المشكلة على المحك، ذلك أن الجندي في العالم المعاصر ينظر إليه كبندقية أو سوط أو بوق، إنه شيء يؤمر فيطيع، جميع دول العالم تعلم جنودها أن ينفذوا الأوامر، وليس لهم حق الاعتراض عليها إلا بعد تنفيذ هل.. انظر إلى هذه المهزلة، ما قيمة الاعتراض بعد التنفيذ، ومع ذلك هذا هو الذي يعلم في جميع أنحاء العالم، كالببغاوات يرددون هذا.

إن هذا الشيء الذي أجمع عليه العالم في نظام الجندية، يخالفه الإسلام مخالفة صريحة لا لبس فيها.. حين يقول: (لا طاعة في

معصية) (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) (الشعراء: 5)

لب المشكلة العالمية هنا بين أن يكون الإنسان مثل البندقية تستجيب دائماً للطلب، لاشك أن البندقية التي لها قدرة على عدم الاستجابة عند الطلب بندقية لا يوثق بها، ومرفوضة عند العسكريين، كذلك الشخص الذي يناقش الأمور ولا ينفذ إلا الأوامر الصحيحة التي يعيد اختيار صحتها بنفسه، ولا يكتفي بأوامر قادته، لا يصلح أن يكون عسكرياً عند هؤلاء.

إن هذه المشكلة بالذات، هي مشكلة الإنسان، ومشكلة العالم، ومشكلة الصلاح والفساد في العالم كله، ولكن كيف نجعل الإنسان يصل إلى هذه الدرجة؟ الجاهل لا يمكن أن يصل إلى هذا، ومرى أخرى المعرفة هي التي تحرر، والجهل هو الذي يحول الإنسان إلى شيء، إلى أداة، وعدم نشر المعرفة هي من أكبر الجرائم، والذين يكتمون العلم مهددون بالنار، هذا هو الدين وكثيراً ما يختلط الأمر، ولا نجاة إلا بالمعرفة، والمتدين الجاهل، مثل غير المتدين الجاهل، كلاهما شيء، هذا ما يعلمنا إياه التاريخ، والتاريخ هو مصدر العلم والمعرفة والله سبحانه يردنا إلى التاريخ حين يريد أن يثبت صدق قوله، يقول إن لم تصدقوا هذا (انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) التاريخ هو مرجع القرآن، وبدون معرفة التاريخ لا يمكن فهم القرآن.

ولذا أعيد القول، وبكل التواضع والثقة، أرى أنه ينبغي أن أقدم وجهة نظري كمسلم يراقب الساحة العالمية، كيف ينبغي للمسلمين أن يقدموا أنفسهم في هذا العالم الصاخب؟ على المسلمين فوراً أن يثقوا بالتاريخ، وأن لا يشعروا بمركب النقص، فيظنوا أن التحاكم إلى التاريخ إعراض عن الله، بل التحاكم إلى التاريخ هو لب التحاكم إلى الله، لأن الله تعالى هو الذي حكم التاريخ بسنن لا تتبدل ولا تتغير، والتاريخ هو الحكم الفصل، والتاريخ هو آيات الآفاق والأنفس، والتاريخ أم العلوم، ورحم المعارف البشرية، حتى علم النفس والاجتماع هما من علم التاريخ، والذي جعل ابن خلدون عالماً اجتماعياً لم يشهد التاريخ مثله، إنما هو كونه مؤرخاً قبل أن يكون عالم اجتماع، إن علم الاجتماع انبثق من علم التاريخ.

التاريخ هو معرفة كيف بدأ الخلق، تاريخ الخلائق، من الذرة إلى المجرة، ومن بدايات الحياة الأولى، إلى المجتمعات المتطورة، والذي يجهل التاريخ لا يوثق بعلمه وهو متبع لهواه شاء أم أبى. . .

والتاريخ هو كلمة الله المجسدة، كلمة الله المادية المرئية، والملموسة، التاريخ هو سنة الصيرورة، سنة الزيادة في اخلق، التاريخ هو الذي

يغربل الصواب من الخطأ، وصدق الله تعالى: (وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) الذي له العاقبة، (وهو الخير والأبقى)، ولا يعرف الأبقى إلا خلال الزمن، فكل ما ثبت نفعه خلال الزمن، فكل ما ثبت نفعه خلال أطوار زمن هو الحق، حتى يأتي ما هو أنفع وأبقى..

التاريخ هو الذي يقول لنا: إن المجتمعات هي التي نظرت إلى الإنسان على أنه شيء ينبغي أن يسمع ويطيع ولا يعترض، والتاريخ يقول لنا أن الأنبياء والآمرين بالقسط من الناس هم الذين قالوا للناس أن تطبع المعروف وتعصي المنكر، والله لا يعفيك إذا ألغيت ذاتك وأطعت الناس، أعظم شيء نزل من السماء وأعظم شيء تولد في الأرض، الثقة بالإنسان في أنه يمكن أن يعرف الصواب والخطأ، فيعمل بالصواب، ويترك الخطأ، ويقول عن الصواب صواب، وعن الخطأ خطأ، فالذي يلغي هذا هو الخطأ، ولو نسب إلى السماء ولو نسب إلى الأرض.

أعظم شيء نزل من السماء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) .. (يود المحرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤيه، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه) (المعارج: 11-13).

إنه المبدأ الذي يفجر الطاقة الإنسانية، وما لم يتحرر هذا الموضوع، لن يتحرر الإنسان لابد من الفهم.. والناس: فاهم معلن، وفاهم كاتم صامت، وثالث لم يفهم.. وهم على التوالي المذكورون في خاتمة فاتحة الكتاب (المستقيمون، والمغضوب عليهم، والضالون) والأخيرون هم الأكثرية المستغلون (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون)

لابد من هدايتهم وهم مجال الدعوة حتى لا يقولوا (ما سمعنا بهذا) هذا ما أراد أن يفعله محمد علي، أراد أن ينبه الجاهلين، وأراد أن يكشف تناقض الذين يكتمون الحق، ويخفون الصواب ويفرضون الصمت، لابد من الشهادة بالحق للحق، النزاع بين من يفهم الصواب، ويريد نشره وبين من يكتم الحق ويريد إبقاء الناس جهلة، ويبذل الجهد حتى لا يسمع الناس الحق، وحتى لا يستيقظوا ليحتفظ بامتيازاته، والجاهلون هم موطن النزاع بين من ينشر العلم ويكتم العلم ويفرض الصمت.

النزاع الحقيقي إذن هو بين العلم وكتم العلم، ينبغي أن يبقى النزاع بهذا الوضوح والتألق، النزاع بين غيجاب العلم، وبين منع العلم، بين وضع العلم والمعرفة أمام الناس وإبلاغه لهم، وبين منع وصول العلم والمعرفة، والحيلولة بين العلم والمعرفة وبين الناس. . النزاع الحقيقي

الأولي البسيط هو هذا، وينبغي إبقاءه بهذا الوضوح والصراحة، لأن بقاء الأمر بهذا الوضوح والصراحة يساعد على نجاح العلم وانتشاره.
ولكن كثيراً ما يحصل التشويش وإخفاء هذا الوضوح، بنقل النزاع إلى أشياء أخرى، وملابسات أخرى، فيمكن من إخفاء النزاع الأصلي، وذلك لأن ظهور المعارض للعلم وانتشاره والسعي لإخفائه يجعل الذي يمنع العلم مكشوف الساحة، تنفر منه القلوب، وتعرض عنه النفوس، ويخسر فوراً المعركة أمام الناس ويخسر المعركة في الأعماق، مما يؤدي إلى الانهزام في السطح أيضاً، وهذا ما يؤكد الله تعالى عليه من أن الحق إذا جاء سيزهق الباطل، إن هذه الآية عميقة، إنها تقرر أن ظهور الحق وحده كافٍ لموت الباطل، من غير أي هجوم عليه، ومن غير ممارسة قتله، بمجرد أن يظهر الحق يموت الباطل...
أريد أن أؤكد على هذه النقطة، وأنا شعرت من بحثي هذا أني وصلت إلى نقطة هامة جداً جداً، وهي تجلية هذه النقطة، وإبرازها بوضوح لأن خفاءها يجعل الأمر ملتبساً، ويؤخر ظهور الحق بوضوح، مما يؤخر انهزام الباطل بسرعة، وهنا نصل إلى نقطة مهمة في الحياة الإنسانية، والمشكلة العالمية في الصراع بين الحق والباطل.

طالما ظن الناس أن الباطل يجب قتله، فتوجهوا إلى الإعداد لقتل الباطل، بدل أن يتوجهوا إلى توضيح الحق وإظهاره، وترك الباطل لحاله، لأنه عند ذلك سيموت موتاً طبيعياً، ولكن محاولة الناس قتل الباطل، قبل إظهار الحق بوضوح يجعلهم يمدون في حياة الباطل ويعطونه حقاً في البقاء، بل ويظهر الباطل كأنه مظلوم ومعتدى عليه، وله حق الدفاع عن النفس، بل ويمكن أن يظهر بمظهر الشهيد، وبالمقابل يخسر الحق مضاءة ويظهر بمظهر المعتدي والظالم، بينما اهتمامه فقط، والتزامه البيان وعدم لجوئه إلى الاعتداء لقتل الباطل، يجعله في مكان السلطان المتألق، الذي مجيئه فقط يكفي لزوال الظلام دون إعلان حرب.
وإني لا أشك أن هذه النقطة هامة وخفية جداً، وإني على يقين من أن هذا سيظهر جلياً في المستقبل، وسيدرك أهل الحق القوة العجيبة الموجودة في إظهار الحق، وسيفهمون كيف يميتون الباطل موتاً طبيعياً، لا قتيلاً، وسيفرح الناس بموت الباطل موتاً طبيعياً، وسيشعرون بالراحة، وسوف لن يبكوا على الباطل لموته، وسوف يستقبلون الحق بكل بهائه وجلاله وعظمته.
وبعد إلقاء هذا الضوء الخافت على هذه المشكلة، أريد أن أعرض أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كيف فهم هذا أشد الفهم وأعمقه،

وكيف بحذق ومهارة ووضوح منع محاولة قتل الباطل منعاً باتاً، وحتى منع الحق من الدفاع عن نفسه، حين يهجم الباطل عليه.
إن أكثر من نصف عمر الدعوة المحمدية كان مكرساً لجعل النزاع بين نشر المعرفة وبين منع المعرفة، ومنع منعاً باتاً أن يلجأ أي من أصحابه إلى أي شكل من أشكال العنف وحتى الدفاع عن النفس،÷ وهذا واضح في السيرة النبوية، لأنه مورس خلال أكثر من نصف الدعوة، ممارسة عملية وقولية من القرآن ومن الرسول صلى الله عليه وسلم وكان المسلمون على وعي وطاعة أيضاً، فلم يخالفوا أمر القرآن الكريم، ولا دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بالتزام قول الحق وعدم تجاوزه خلال تلك المدتن الطويلة الصعبة، الشاقة إلى درجة أن بعضهم شعر أنه في الجاهلية كان يحق له أن يدافع عن نفسه فكيف حرم الإسلام هذا الحق؟.. إن الله كان يقول لهم: (كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة) ويقول لهم: (لا تطعه واسجد) لا تترك إعلان المبدأ ونشر المبدأ خوفاً منهم، ولكن لا تستعمل يدك ولا تدافع عن نفسك..
ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة).
ويقولون له: (يا رسول الله لو أمرتنا لنهجمن عليهم ولنميلن عليهم فيقول: لا لم نؤمر بذلك)
ما هذا الالتزام الواعي الصابر؟ ولماذا هذا الأمر النبوي والإلهي بهذا الالتزام؟ لابد أنه أمر مهم جداً جداً في الحياة الإنسانية إنهم بهذا كانوا يغرسون الشرعية، ويمدون جذورها في أعماق الإنسان، كانوا قد أنشأوا جواً نظيفاً معقماً ولم يكن أحد من قريش يتوقع من محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه عدواناً ولا دفاعاً عن النفس.
وكان القرشيون يثقون بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أموالهم، وأعراضهم، ودمائهم، أكثر من ثقتهم بأبنائهم البررة المخلصين لهم، وبإخوانهم، انظر أيها المسلم إلى هذا الجو النظيف، النقي، الذي هو معقم أكثر من غرفة عمليات القلب المفتوح.
ويؤكد الله تعالى مراراً وتكراراً أنهم لم ينقم منهم مخالفوهم إلا لإيمانهم بالله ونشرهم لتعاليمه وتلاوتهم للقرآن جهراً في صلاتهم، وكم كرر القرآن الكريم القول: (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله).. (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)
هذه الصورة والنصوع، والتألق، بحيث لا يمكن أن ينكرها أحد من المسلمين أن الوضع لم يكن هكذا، ولكن يجهلون قيمة هذا الواقع

الجلي، ويتساهلون في مخالفته، ويحتالون على تفسيره، بأن هذا الوضع لم يعد قائماً الآن وليس علينا أن نلتزم هذا الذي التزمه المسلمون، والقرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم بدقة متناهية ودون أي سماح بالمخالفة، إن لي الحق في أن أقول إن هذا الوضع لم ينسخ ولم يفت أوانه، وأن الذين يخالفونه يدفعون ثمناً باهظاً، ولا يصلون إلى نتائج بل يتراجعون.

بينما هذه الطريقة طريقة محمد صلى الله عليه وسلم هي الناجحة سابقاً، وستنجح لاحقاً وسوف لن يجد الناس عنها محيداً في المستقبل.

إن نظام الله حين يلتزم الإنسان بشروطه الواضحة الجلية يؤدي إلى أن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، هذا نظام الله.

وأن الأذى الذي يلحق بهم وهم على هذه الطريقة الواضحة شيء محتمل، وليس شيئاً ساحقاً، ماحقاً، (لم يضروكم إلا أذى) (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، إن الله بما يعملون محيط.) (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليه من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس) (المائدة: 67) (ولنصبرن على ما آذيتمونا).

إن إظهار الحق، وعدم قبول السكوت عليه، والتزام عدم الدفاع عن النفس إزاء العدوان يجعل الوسط والمناخ وسطاً، ذهبياً لنمو الحق، واستطالته، وانتشاره برسوخ وثبات والذين يدرسون نشوء الحضارات يتحدثون عن أن الحضارة تنبت في الوسط الذي يوجد فيه التحدي، بشرط أن لا يكون التحدي ساحقاً ماحقاً، ولا رخواً، لا يبعث على السعي.

ما دام الإنسان يطمع في النجاة، ويخاف من الفشل، فهو الذي يبذل أقصى جهده، وأما الذي يئس من النجاح فلا يسعى ويكف عن الحركة، وهذا ما قال الله عنه: (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وأما ضرورة الخوف أيضاً لأن الذي لا يخاف لا يستعد لدفعه، وفي هذا يقول الله: (لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) (وكانوا يدعوننا رغباً ورهباً)

هذا الأسلوب بشروطه الدقيقة يجعل الاستمرار والبقاء في ميدان الدعوة ممكناً ونامياً بأقل الخسائر وأحسن النتائج.

فمن هنا يمكن أن نعلم أن التزام الرسول وأصحابه على التبليغ وعدم رد الأذى، لم يكن شيئاً ثانوياً، يمكن تجاهله، ويمكن تجاوزه دون أن يفسد مناخ الدعوة.

وبمقدار ما وضح الله ضرورة التزام الصبر، وبمقدار ما التزم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بدقة نجد المسلمين يتهاونون في هذا الموضوع، ولا يعيرونه اهتماماً أبداً، وكأن إغفال هذا الأمر لا يفسد أمر الدعوة.

هذا التناقض الذي وقع فيه المسلمون يدل على شيء آخر مهم، وهو أن الناس حين يتجاهلون موضوعاً تجاهلاً تاماً، ولا يستحضرونه في أذهانهم، لا تعود النصوص تفيد شيئاً، ولا تعود تؤدي دوراً حيوياً في التوجيه، وهخذا موضوع كبير لابد من الانتباه إليه، ولابد من اليقظة التامة والمراجعة الدائمة، خشية أن يكون الإنسان وقع في خطأ، ليبحث أين الخلل حتى يزيل الخطأ، إن الخلل في المجتمع مثل الخلل في الآلة الميكانيكية قد يكون الخلل في نظر الممارس تافهاً، ولكن يمنع الآلة من أداء عملها، وكذلك المجتمع.

ولابد من درس هذه المواضيع ومتابعتها في زواياها المظلمة حتى تصير واضحة للعيان فحيثما يوجد الظلام والخفاء توجد المشاكل، وحيثما يوجد النور والوضوح يحل النجاح.

وقد يقول المسلم إلى حد ما: فهمنا الالتزام الصعب، الذي التزمه المسلمون في النصف الأول من الدعوة الإسلامية، ولكن الأمر مختلف في النصف الثاني من الدعوة فهناك جاء الإذن بالقتال ورد العدوان والإعداد المكين، وهذا العهد نسخ العهد الماضي فلم نعد في حاجة إليه، ولن يرجع ذاك العهد الأول الذي أمر المكسلمون فيه بالصبر على الأذى وعدم الدفاع عن النفس.

وبعونه تعالى سنبذل كل ما في وسعنا لجلاء هذا الموضوع أيضاً، لأن خفاءه يسبب آلاماً تضيع الجهد والوقت، وذلك كما قال محمد إقبال:

لحظة يا صاحبي إن تغفل ألف ميل زاد بعد المنزل.

ينبغي أن نقسم المراحل إلى ثلاث للتوضيح والبيان: مرحلة الدعوة الأولية أنفاً كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد بينا ذلك فيما سبق، والتزمه الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وصل إلى الحكم برضا الناس، واستقبله أهل المدينة بـ (طلع البدر علينا) ولم يكن معه جيش ولا سلاح، وكنت مرة أبحث هذا الموضوع فعرضته كما سبق فقال لي بعض الشباب بحماس جلي: يا فلان تقول هذا والتاريخ علمنا أنه لم تقم ثورة إلا بالدماء، فقلت له: لقد نسيت أو تجاهلت.. نعم قامت الثورات الدموية، ولكن غفلت عن ثورة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنها لم تكن دموية، ولم يقتل المسلمون ولا رجلاً واحداً، ولم يقتل من المسلمين حسب ما أذكر إلا ياسر وسمية.

أمـا المرحلـة الثانيـة بعـد الوصـول إلـى الحكـم بـالطريق السـلمي والشـرعي، وبعـد إنشـاء المجتمـع المتميـز، كـان الجهـاد علـى الـذين يمارسون ما ورد في قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فـي الـدين ولـم يخرجـوكم مـن ديـاركم أن تبـروهم وتقسـطوا إلـيهم) (الممتحنة: 18).

لم يكن القتال لإزالـة الكفر، لأن الكـافر لـه حق أن يبقـى كـافراً بعد الانتصار عليه، وله حق المعاملة بالبر والقسط، ما دام لا يقاتل في الدين، لا يقاتل من أجل الدين.

هذه الآية توضح جداً، أنه لا يجوز القتال من أجل الدين، لأنه (لا إكراه في الدين) القتال هو من أجل منع الذي يقاتل من أجل الدين، قتال الذي يكره النـاس علـى ديـن مـا لأن الله يقرر أن (لا إكراه فـي الدين)، ولا بد من تكرار هذا وإيضـاحه، لأن الناس يظنون أن القتال يكون من أجل الدين بينما هو لأجل منع الإكراه في الدين، لا للإكراه في الدين.

القتـال حتـى لا تكـون فتنـة وتعـذيب لأجـل الـدين: (قـاتلوهم حتـى لا تكون فتنة).

كما كان القرشيون يفتنون الناس عن دينهم، القتال فـي الإسـلام لنشر حرية الدين والعقيدة يحق للناس أن يدينوا بأي عقيدة، والذي لا يجوز هو الإكراه (لا إكراه في الدين).

هنا الحديث ليس عن نوع الدين، لا يجوز القضـاء علـى الدين الفاسد بـالإكراه ولا يجـوز نشـر الـدين الصـحيح بـالإكراه - هنـا ح–صـانة للحريـة الإنسـانية فـي اختبـار الـدين والـرأي الـذي يريـده الإنسـان، والشـيء الذي تهتم به الآية هنا هو الإكراه فإذا ارتفع الإكراه فلا حرج فـي نـوع الـدين الـذي يـدين بـه الإنسـان، مـن هنـا نعلـم أن الاهتمـام بتـوفير حريـة الاختيـار، بـل ويفـرض عقيـدة معينـة بـالقوة، ولـو كـان الـذي يفعـل هـذا مسـلماً، ولهـذا فـإن عليـاً رضـي الله عنـه لـم يقاتـل الخـوارج، ولـم يسـمح بمقـاتلتهم لأجـل عقائـدهم، وقـال لأصـحابه لا تقـاتلهم حتـى يسفكوا دمـاً محرمـاً، فلمـا بـدأ الخـوارج يقتلـون مـن لـيس على رأيهم قاتلهم علي رضي الله عنه ليحول بينهم وبين قتل الناس.

ينبغـي أن يعـود هـذا المفهـوم إلـى الفكـر الإسـلامي بكـل وضـوحه وجلائه، وينبغي إظهار أن من يعطي حرية الاختيار للناس هو الذي يثق بـالفطرة الإنسـانية، والضـمير الإنسـاني، والـذي يثـق بمبدئـه أيضـاً لا يحـاول الإكـراه، فمنـع الإكـراه فيـه ثقـة بـالإنسـان وثقـة بالمبـدأ، والـذين يمارسـون الإكـراه يفقـدون هـاتين الثقتـين، يفقـدون الثقـة بـالإنسـان

ويسيئون الظن في اختياره، ويسيئون الظن بالمبدأ، أو بالدين الذي لا ينتشر إلا بالإكراه، فهو خسر الرهان مرتين قبا أن يدخل المعركة، وهذا واضح في التاريخ وعواقب الأمور، ونحن الذين نعيش في نهاية القرن العشرين عندنا على صدق هذين الأمرين من الأدلة التاريخية الواقعية ما لم يكن عند الذين عاصروا نزول القرآن، وأرجو أن يتوسع المسلمون في فهم هذه الأمور حتى لا يسيئوا إلى عقيدتهم، ولا إلى دينهم ولا يظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية).

الله جل وعلا سمح بوجود المعارض له وأعطاه حق البقاء والوجود، فهل نحن البشر لنا حق منع المعارضة، (ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) لا شك أننا خسرنا والخاسرون في العالم الآن هم المسلمون، ولابد أن يغيروا ما بأنفسهم من سوء الظن بالله، حتى يغير الله ما بهم من الخسران في العالم الذي يعيشون فيه.

وحين أقرر هذه الأمور، وأراهم بدهيه، أكون مغروراً، وأكون غير فاهم ما عليه المسلمون من الشبهات والظنون، فإذا ما سمعوا أو قرأوا قوله تعالى: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة) يظنون أن القتال والمعاملة الغليظة لأجل كفرهم فيفهمون الكفار هنا بالذي يكفر، مثلاً الكفر الموجود في قوله تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)، هذا الكفر الموجود هنا، ليس هو الكفر الموجود في الآية السابقة، لأن الكفر الموجود في الآية الثانية بالإجماع لا يقاتل عليه من أجل قولهم إن الله ثالث ثلاثة، بل لهم حق المعاملة بالبر الذي هو المعاملة مع الوالدين، من الولد البار مثل يحيى بن زكريا عليه السلام: (وبراً بوالدي) الكفر الموجود في الآية الأولى هو المعنى الذي حدده الله في آية الممتحنة، لما قال: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)، وكما في آية الحج: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير،الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)

الأمور تصير واضحة ولا تناقض ولا تدابر بينهما ولكن أهواءنا هي التي تحرف الكلام عن مواضعه، فكل آيات الجهاد والقتال والاستقتال والوعد بالأجر العظيم للجهاد والترهيب الشديد من ترك الجهاد في القرآن كله وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ليس المراد به الجهاد ضد العقائد الكافرة، وإنما ضد الإكراه في الدين، لإزالة الإكراه في الدين، وحماية حرية الاعتقاد في العالم كله.

وإن كان هذا التصور غريباً حتى عند المسلمين، ولكن عندي أمل في أن الزبد سيذهب جفاء، وأن الذي ينفع الناس سيمكث في الأرض وإن حصل من هذا الفهم والتفسير تعجب من المسلمين واستغراب له، فيضطرون إلى الرجوع إليه وقبوله، والارتياح له بعد أن يتأملوا آيات الكتاب.. وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وأعماله وأعمال الراشدين من خلفائه وكذلك سيرتاح الذين يعرفون اتجاه التاريخ ومستقبل البشرية لأن الذين لا يحمون حرية الفكر والاعتقاد هم الذين يتساقطون وتتهاوى عروشهم فتلك بيوتهم خاوية، وأسلحتهم معطلة ولم تغن عنهم شيئاً إذ كانوا يجحدون بآيات الله في الكتاب (لا إكراه في الدين) وبآياته في التاريخ حيث تهاوت الأفكار التي فرضت بالقوة مع كل أسلحتها التي كان في إمكانها تدمير العالم جميعاً.. والحبل على الجرار!!

فيسيقط الذين يتكبرون في الأرض ويجعلون أهلها شيعاً يستضعفون طائفة منهم يذبحون أبناءهم ويخرجونهم من ديارهم، وعد الله قريب يرونه بعيداً ونراه قريباً، (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

إلا أن يدب في هؤلاء المستضعفين أيضاً داء الأمم، داء الاستكبار، فسيحل بهم قانون الله، (وإن عدتم عدنا) غمن هنا نعلم حين فرض الإسلام لا إكراه في الدين، كم جعل مجال جواز شن الحرب مجالاً ضيقاً فلا يجوز شن الحرب إلا على الذين يكرهون الناس على دين معين ولا يجوز شن الحرب إلا على شريعة الغاب.

فإذا كان المسلمون جهلوا دينهم فلابد من إعادة بيانه مهما أراد الذين يريدون ليطفئوا نور الله سواء ممن ينتسبون إلى الإسلام أو ممن يعادون الإسلام.

(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره) ولو كره الكارهون.

المرحلة الثالثة: أو الوضع الثالث وهو حين يذب الفساد في الذين استخلفهم الله في الأرض، ومن عليهم من بعد الاستضعاف، ربما هذه الحالة التي يقع فيها الاشتباه على اختلاف مراحلها المبكرة في الفساد أو المتناهية فيه، ونحن نذكر هذه المرحلة أيضاً بإيجاز، بينما هذه المراحل لابد من وضعها كلها تحت المجهر وبحثها البحوث المستفيضة، حتى لا تبقى الثغرات التي يمكن أن يدخل منها الخطأ، فهذه الحالة هي التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرها كثيراً ويحذر منها ويقول في حجة الوداع: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وليس المراد بالكفر هنا الكفر بالله وإنما المراد الاقتتال من اختلاف الآراء والاعتقادات، وحتى لو كان المراد به الكفر فقد تبين ولابد أن يتبين من أن القتال في الإسلام ليس لأجل الكفر والفساد في الاعتقاد.. هذا ينبغي أن يُفرغ منه وإلا فسيستمر القتل وسفك الدماء والفساد في الأرض.

لهذا لقد قلص الإسلام مجال الحرب وسفك الدماء حين قال لا إكراه في الدين فصار مجاله ضيقاً.

إلا أن المسلمين رجعوا عن هذا الشيء الكبير الذي جاء به الإسلام حين منع إباحة الدماء من أجل الاعتقاد.

في هذه المرحلة القرآن بحسب ما يتراءى لي اكتفى بالقانون الذي سنه في طريق الوصول إلى الاستخلاف في الأرض بعد أن بين الواجب عليهم في أسلوب نشر الحق إلى أن يمن عليهم ويستخلفهم في الأرض فهذا هو طريق القرآن الكريم للاستخلاف سابقاً ولاحقاً.. قول الحق.. (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً) .. (وإن عدتم عدنا)

قانون واحد في البدء وأثناء السير وفي الختام، وفي العودة (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) لأن الأسلوب الذي وصلوا به إلى الاستخلاف قمين أن يستمر بهم في الاستخلاف ما لم يغيروا ويبدلوا (سنة الله .. في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً)

ولكن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كثرت فيها الأحاديث التي تنبأت بما سيحدث من اختلاف وانحراف واقتتال وحرص الحرص الشديد على التزام كلمة العدل عند الذين يجورون ولم يسمح لهم وحذرهم من الخوض فيها وقال: (إنها ستكون فتنة يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، والجالس خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي، قال يا رسول الله ما تأمرني: قال من كانت له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال: فمن لم يكن له شيء من ذلك؟ قال: فليعمد إلى سيفه فليضرب بحده على الحرة ثم لينج ما استطاع النجاء)

وفي حديث قال قلت يا رسول الله إن دخل عليّ ببيتي وبسط يده ليقتلني قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كن كابن آدم) وتلا الراوي: (لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك)

وفي حديث عن أبي موسى الأشعري في الفتن (فاكسروا قسيكم واقطعوا أوتاركم واضربوا سيوفكم بالحجارة فإن دخل - يعني على أحد منكم- فليكن كخير ابني آدم)

وفي حديث أبي ذر قال قلت يا رسول الله: أفلا آخذ سيفي فأضعه على عاتقي؟

قال: شاركت القوم إذن: قلت: فماذا تأمرني؟ قال: (تلزم بيتك. قلت: فإن دخل عليّ ببيتي: قال: فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبؤ بإثمك وإثمه)

كأنه صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى الغيب من وراء حجاب حين أمر المسلمين أن يتلفوا أسلحتهم وأن يدفعوا عن أنفسهم حتى إذا دخلوا على بيوتهم يريدون قتلهم.

هذه الأحاديث موجهة إلى الذين سيأتون من بعد حين يقعون في الفتن، هذا موجه إلينا نحن، إنها معجزات في فهم سنن الله في المستقبل أيضاً، فهذا الرسول النبي الأمي صلى الله عليه وسلم الذي يقول:

إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه وحامله والرامي به) يأمرنا أن نتلف أسلحتنا أولاً حتى لا نستعملها عند الاضطرار وثانياً حتى نخرج من أنفسنا نية استعمالها، وثالثاً ربما حتى مجرد احتواء الأسلحة قد تكون مسوغاً للاتهام، وهذه الثالثة لم تظهر بوضوح إلا في أيامنا هذه، فإن لم تكن الأسلحة موجودة فسيختلقها الخصوم..

العجب أن يخفى هذا على المسلمين، ومن شدة الظهور الخفاء، ينبغي أن لا يختلط الجهاد والسلاح والإعداد بالقوة، إذ ليس كل إعداد صحيحاً وليس كل قتال جهاداً، فهذا الذي اختلط الحابل فيه بالنابل، والخارجي بالمجاهد، فحتى تزول هذه الاختلاطات من نفوس المسلمين هل علينا من حرج إن قلنا إن المسلمين كلهم إلا من رحم ربك، صاروا على مذهب الخوارج، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر من انتشار الجهل حتى لا يوجد من يعرف كيف يقسم الميراث..

الآن صار الجهل والخفاء لأحكام الشرع حتى لا تجد في الأمة من يهتدى فيه إلى الصواب ومن يذكر شروط الجهاد فيظنون أن الجهاد هو قتل من لا يعجبك رأيه، فإذا لم تكن الجاهلية هذه فما هي؟ الله الله يا مسلمون (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) فالذين قتلوا علي بن أبي طالب مثل عبد الرحمن بن ملجم وأنشأوا القصائد في مدحهم مثل عمران بن حطان، إنهم كانوا يظنون أنهم هم المؤمنون فقط ونشيد منشدهم.

أألفاً مؤمن منكم زعمتم يقتلهم بآسك أربعونا

هذا الذي ذكرته هنا بإيجاز مخل والجهل فاشٍ وحتى العلماء - إلا من رحم ربك- لا يذكرون الفرق بين الخوارج والجهاد، ولا يعلمون الفرق، ويظنون كل من يقتل من لا يعجبهم رأيه جهاداً فهذا الجهل الفاشي الطامي من قبل العلماء إلا من رحم ربك وقليل ما هم هو

الذي يجعل شبابهم يقعون في الجهالات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويحيون الفريضة الغائبة، والعلماء يسكتون وحتى الذي يدينهم لا يدينهم عن علم ومعرفة وإنما إرضاء لبعض الأطراف.

فما لم ننشر ونحيي هذه القوانين والسنن الإسلامية، سنظل نحصد الحسرة والندامة، وإن الله لن يمل بل سنمل نحن وسوف لن يغير الله سننه وقوانينه حتى يغير البشر ما بأنفسهم، وربما آن الأوان ليتذكر من يتذكر.. ألم يكف التاريخ المتطاول في ممارسة العنف، وفي كل مرة تتكرر الفتن يرقق بعضها بعضاً، إن الذين لا يرون حلاً للمشكلة إلا بالعنف يعيدون المشكلة من جديد، بشكل أعنف من الذي سبق، فهذا معنى يرقق بعضها بعضاً، أي الفتنة اللاحقة أسوأ من السابقة.

واستيلاء هذه الفكرة على النفوس يسد منافذ الفكر. ولا يفتح أمامهم مجالاً للتفكير في أهمية العلم والمعرفة ونشر الفكر، وبذلك تتوقف المعرفة بينما لو توجه الفكر إلى عرض الأفكار التي تستولي على القلوب وتأسر النفوس لكانوا أغنوا التجربة وتوسعوا في المعرفة، وانفتح أمامهم مجالات للإبداع، فلابد من توضيح الأفكار، وتنوير القلوب، وتكوين النفوس التي تستطيع الدخول إلى الساحة على بصيرة، والثبات فيها على يقين، حتى يلتئم الشمل ويتضح الطريق، وتتكون نواة الفكرة النيرة، وتعود سنة الأنبياء من جديد والخروج من الظلمات، وحين تتضح هذه الأفكار وتظهر حملتها، فسيعلم الفرقاء المتنازعون على اختلاف تصوراتهم، كم كانوا بعيدين عن الصواب، وكم من جهود بذلت ونفوس أزهقت، فلابد من أن يتفق الفرقاء جميعاً على أن يدينوا العنف، ويتآزروا على إنهائه، ويتواصلوا على الثبات، على العلم والسلم، ويعرضوا عن الجهل والعنف، وينظروا إلى كل الذين لا يزالون يعلقون آمالهم على العنف، كم هم يزيدون الطريق طولاً؟ ويدفعون الثمن باهظاً، ويبقون الناس في حيرة ويملؤون النفوس يأساً، إن كل مرة تتكرر المأساة سواء نجحوا بواسطة العنف أم فشلوا، أما آن للمثقفين وأصحاب العقول أن يبصروا الطريق ويبصروا الناس، ويستفيدوا من عبر التاريخ، وسنن الذين خلوا من قبل. إن القرآن يسلسل أعمال الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم وينطقهم بأوضح بيان ويقول: (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون) (يونس:71)

كم هذه الآية بليغة وواضحة، في الفكر والعمل والتحدي، وعلى الذين لهم أسوة حسنة بالأنبياء أن يقوموا الآن، كما قام نوح من قبل

آلاف السنين، مثل الديمقراطيات المعاصرة، وقبل الديمقراطيات الغابرة أيام اليونان، ليعيدوا إلى الفطرة البشرية أسلوب التعامل معها.

ويعلنوها صريحة مدوية وأن يقوموا ويذكروا بالعلم والمعرفة والتاريخ والكتاب، وأن الذي يعارض العلم والمعرفة والتاريخ والكتاب والأنبياء والآمرين بالقسط من الناس، إن الذين يعارضون هذا، إن هذه المعارضة فلتجمع أمرها ولتحضر شركاءها وعليهم أن لا يكون شيء من أمرهم خفياً، فليأتوا ولا ينتظروا.إن نوحاً عزم عزماً أكيداً وواضحاً، أن يثبت على العلم والسلم بوضوح فاقع مضيء، لا لبس فيه ولا غموض، والتحدي واضح جلي لابد من إظهار هذه المعادن النفيسة في التاريخ القديم والحديث، ولابد من إظهار تسلسل الكفاح البشري، إن الأنبياء في الشرق كلهم جاؤوا بهذا الطريق النير الواضح وحتى الحضارة الغربية التي انتسبت إلى المسيح أزالت من دعوة المسيح الدعوة السليمة، إنه لموضوع شيق للدراسة والتنقيب في تاريخ العالم، كيف سار العلم والسلم؟ وكيف ينبغي أن يسيروا من جديد، إذ لا حل للمشكلة إلا بالعلم، والعلم يصحح الطريق ويزيل الخطأ ويهتدي إلى سبيله، فهو كما قال مالك بن بني: والعلم بحرصه على الحقيقة يصبح أخلاقاً لا يطيق الصبر على الخطأ حتى يجري التصحيح اللازم عليه.

وهذا ما يتحدى الله به البشر من أن عواقب الأمور في المستقبل هي التي ستظهر الحق، وإذا ظهر الحق هلك الخطأ: (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)

ومولانا محمد علي كان يعاني هذه المشكلة التي عاناها الناس من عهد نوح قبل آلاف السنين وعاناها محمد علي قبل سبعين عاماً من يومنا هذا، وكأن المشكلة التي كان يعانيها لا تزال قائمة، ولم تتقدم إلا قليلاً، ولكن قد أضافت هذه السنين التي مضت من ذاك اليوم أدلة ساحقة ماحقة، فكأن محمد علي أعاد مرة أخرى، وجدد في التاريخ دعوة أبي الأنبياء نوح عليه السلام، لما قام وأعلن رأيه، وذكر الناس بآيات الله ولم يبال بالملك ولا بالجيوش ولا بكل أدوات الاستعمار، إنه بكل الجلال وكل الجمال ترافع هذه المرافعة الفذة المتألقة، وعلينا نحن أن نزيدها تألقاً ووضوحاً وإضاءة، ونبلغ بها المدى الذي ينبغي أن يبلغه، وإني على يقين من أن هذا الأسلوب الواضح العريق في تاريخ النبوة من عهد نوح إلى يومنا هذا ومع كل الآمرين بالقسط من الناس، إن هذا الأسلوب هو الذي سيسقط المستكبرين في الأرض ليدخلوا جميعاً في العلم والسلم كافة ولا يحتكروا العلم وعلى المستضعفين أن لا يعجبوا بمال قارون، ولا بقوة فرعون، ولا يتمنوا ما عندهم، كم هو رائع عرض القرآن وكيف وصف الذي أعجب بقارون كيف وصفهم بأنهم قصار النظر، وأن إرادتهم لا تبتعد كثيراً، وأنهم يريدون حياة دنيا وهناك قال الذين أوتوا العلم منتقدين لنظرات الذين تمنوا مثل ما أوتي قارون وظنوا أنه ذو حظ عظيم..

(وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون.. تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.)

إن الأفكار المسيطرة تحول دون تفهم الأفكار الصحيحة مهما كانت الأفكار الصحيحة واضحة جلية، والآن على المستضعفين في الأرض أن يعلموا وأنا على يقين من أن المستكبرين في الأرض لا يسخرون العالم بالقوة وأن قوتهم لا تساوي شيئاً.

وأنهم مثل سحرة فرعون يسترهبون الناس ويخيلون للناس أن هذه القوى يمكن أن تفعل شيئاً وهي لا تساوي شيئاً ونحن المستضعفين في الأرض، لسنا في حاجة إلى أية قوة مهما كانت كبيرة أو صغيرة للتحرر، وإنما في حاجة إلى شيء واحد، أن نتمكن من كلمة واحدة أن نقول كلمة (لا) ولا ننفذ أمرك، فقط هذه الكلمة وليس شيء غيرها، هذا ما قاله صلى الله عليه وسلم لقريش كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

والحوار الذي يقصه الله علينا في القرآن عن أن الشيطان سيقول يوم القيامة للناس: (ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم).

والمستكبر الآن هو الشيطان ليس له أي سلطان وإنما بالوهم يأمرنا فننفذ أمره فإذا قلنا لا نقبل هذا، فلن يستطيع أن يفعل شيئاً، وهذا صار واضحاً جلياً وعلى الشباب أن يفكروا بعقول نيرة ويبطلوا السحر الذي استولى علينا.

وبفضل الله إن الشيطان غبي والمستكبرين أغبياء، يغرهم سلطانهم فيتجاوزون حدودهم، فيكون سبباً في أن نكشف السحر.

إن بعض الناس ينكرون السحر، ولكن لم يحدث في التاريخ أن قام أحد بسحر أكبر مما يقوم به المستكبرون في الأرض حين يوهمون المستضعفين في الأرض أنهم يستطيعون إرغام الناس على طاعتهم..

والحديث ذو شجون وسيكون كلام الذين يأتون من بعدنا أعلى مقاماً وأوضح بياناً، وأعمق أثراً، وطوبى لأولئك الذين يصنعون سبل السلام ويبنون دار السلام ويخرجون الناس من الأوهام.

وإني أنصح طلاب العلم والحلم أن يتأملوا هذه المرافعة التي أمامهم، وأن يقرؤوها بتدبر وأن يعيدوا قراءتها وأن لا تكون قراءهم قراءة ختمية، وكم من الناس قراءتهم قراءة ختمية، ولا يمكن أن نتبين الفرق إلا إذا كنت تواقاً ذواقاً تعرف مواقع النجوم ومواقع السجود، تقدر الفكرة وتقبلها وتقدر ما أضيف إليها وما أنير من حولها، لابد

من إعادة قراءة الأفكار الجيدة، الفينة بعد الفينة، والفترة بعد الفترة لتجدها كأنك لم تقرأها، ولم تمر عليها وليس كل الناس يصلون إلى هذا التقدير والتذوق ولكن إذا حصلت شيئاً من ذلك فلا تضيعه ولا يغرنك كثرة المعرضين وقلة الفاهمين، وتذكر قولهم، انفرادك في الطلب دليل على صدق الطلب، والآن أدعك لتعيش مع المرافعة.

جودت سعيد محمد

بئر عجم

1992/6/19م

مولانا محمد علي:

كان رجلاً جريئاً صريحاً لا يعرف أحابيل السياسة، وكان يحسب علاج الأمور بالمداورة والمصانعة جرائم خلقية تعيب صاحبها وتشينه، وكانت حياته تستمد فيوضها من منبعين وضعهما هو يقوله: إذا كان الأمر أمر فريضة من فرائض الإسلام فأنا مسلم أولاً ثم مسلم ثانياً، ثم مسلم آخراً، ولا شيء غير مسلم، وإن كان الأمر يعني الهند فأنا هندي أولاً ثم هندي ثانياً؟، ثم هندي آخراً ولا شيء غير هندي.

وهو بوصفه مسلماً قد ناصر الأتراك ضد الإيطاليين وضد أمم البلقان، وبقي على ولائه للأتراك طول الحرب العالمية الأولى، وفي انتهائها اعتقلته الحكومة، ولما وقفت رحى الحرب خاض غمار معركة الخلافة وذلك لكي يستبقي سلطة سلطان تركية كخليفة للمسلمين، وهو بوصفه هندياً قد عاون غاندي أصدق المعاونة في حركة عدم التعاون وفي مقاطعة البضائع الإنكليزية، وفي معركة الغزل.

<u>*من تاريخ رجالنا*</u>

أيها المحلفون

لا . . . الله لا الملك

مرافعة مولانا "محمد علي" في محاكمة كراتشي الشهيرة سنة 1921
أمام هيئة محلفين

نص مرافعة مولانا "محمد علي" وقد نشرت هذه المرافعة في مجلة "المسلمون" قبل اثني عشر عاماً مترجمة عن مرافعته الأصلية باللغة الإنكليزية من كتاب:
"WRITINGS AND SPEECHES , OF MOULANA MOHAMMAD ALI" جمع السيد أفضل علي، والحق أننا عانينا في الترجمة صعوبة وحرجاً، فإن العذوبة والسلاسة والروعة في لغة مرافعة "محمد علي" لا يمكن أن تترجم، رحمه الله ورضي عنه وأرضاه.

بوجهه الصريح المشرق، وبلحيته التي خطها الشيب إلا شعرات سوداء تحفظ في سمته الرهيب عنفوان الأمل وشباب العزيمة.. وقف "محمد علي" يومين في قفص الاتهام يترافع عن نفسه وعن شقيقه وإخوانه الخمسة في محاكمة كراتشي الشهيرة، سنة 1921، أمام هيئة محلفين من خمسة أشخاص: اثنان منهم هندوكيان، والآخرون مسيحيون أحدهم أوربي.

كانت جريمتهم أنهم اشتركوا في مؤتمر رأسه "محمد علي" زعيم مسلمي الهند قبل التقسيم وأصدر قراراً مدعماً بالقرآن والسنة يدعو المسلمين إلى مقاطعة وظائف الحكومة البريطانية في الهند وخاصة العمل في القوات المسلحة، ووقع الإنكليز في حرج شديد..

لم ينكر "محمد علي" التهمة، ولكنه اعتز بها، وجهر بحكم الله فيها، وما أتم مرافعته حتى استحالت القاعة محراباً خاشعاً، واقشعر كل من فيها رهبة لهذا الرابض في القفص.. وصدر الحكم فكان مفاجأة للجميع، كان الكل ينتظر من هيئة ليس فيها مسلم أن تحكم "بالنفي المؤبد" فإذا هو حكم بالبراءة!

مات "محمد علي" (وهو غير مولانا محمد علي اللاهوري رئيس الأحمدية) سنة 1931 عن 53 سنة، ودفن إلى جوار المسجد الأقصى الذي كان يحن إليه ويهيب بالمسلمين إلى الذود عنه، بعد حياة عامرة بالجهاد في سبيل الله، وبالدفاع عن فكرة الخلافة الإسلامية وأخوة المسلمين كافة.إن هذه المرافعة صفحة غراء من تاريخنا الحديث، وبرهان رائع على الحياة التي تجيش في كيان الأمة الإسلامية المغلوبة على أمرها.

قبل أن يوجه "محمد علي" كلامه إلى هيئة المحلفين التفت إلى ناحية مجلس المحكمة فقال: ((ألا يمكن أن يجلس المحلفون ليكونوا مني في هذا الجانب؟ إنني أريد إغراءهم كما أغريت القوات المسلحة)) (ضحك في المحكمة).

وعلى ذلك أوعزت المحكمة إلى المحلفين أن يغيروا أماكنهم، وكذلك القاضي غيّر وضع مقعده بحيث يواجه المتهمين.

ثم نهض مولانا محمد علي في السكون الشامل موجهاً كلامه إلى هيئة المحلفين:

أيها المحلفون: قد رجوت القاضي الرئيس ليتيح لي أن أرى وجوهكم، إذ باستثناء واحد منكم لم يكن يتيسر لي ذلك، ولقد قلت إنني أريد إغراء المحلفين، ولقد كان في الحقيقة من وراء ذلك مراد آخر، ربما كان ثانوياً كما قد يقول المدعي العام، لقد كان مرادي أن تكونوا بمثابة ستر بيني وبين السيدات اللواتي يجلسن الآن خلفكم، وإلا فقد يزيد عليّ المدعي العام تهمة (إغراء) أخرى. (ضحك).غير أني على أي حال، أرى أنه نتيجة لمحاولتي في الإغراء قد حولت القاضي لناحيتي اليوم. (ضحك).

أيها السادة: أظن أنني سآخذ من الوقت ما أستطيع ولذلك أرى لزاماً عليّ أن أبين لكم إن أردت الدفاع عن نفسي أو عن زملائي لنتخطى حكم النفي المؤبد أو المشنقة أو السجن – ولا أدري ما الذي يدخره القاضي لنا – إنني إن أردت ذلك، لما كان لي في الإطالة عذر أبداً، كلا أيها السادة، فما كان لي أن أضع لحظة واحدة من وقتي ووقتكم لهذه الغاية.

إنني لا أبتغي أي دفاع ، وليس لدي ما أدفع به، لأننا لسنا نحن الذين نحاكم، إنها الحكومة نفسها التي تحاكم، إنه القاضي نفسه الذي يحاكم، إن نظام النيابات العامة بأجمعه وسائر مواد القانون هي التي تحاكم، فلا مجال لسؤال حول دفاعي، إذ هي قضية واضحة غاية الوضوح، وقد أبديت شكري للحكومة في المحكمة الابتدائية لأنها تصدت للمرة الأولى وبوضوح سافر وأفسحت لنا المجال لأخذ قرار حول موضوع محدد لدعوى واضحة بينة، ذلك الموضوع المحدد للدعوى البينة الواضحة هو:

هل ينبغي لشريعة الله أن تكون أهم لدى التابع البريطاني من قانون الملك – القانون الوضعي– سمّوه صاحب الجلالة، أو صاحب الجلالة الإمبراطورية، عظموه بما شئتم له من تعظيم، أظهروا له كل طاعة، وقدموا له وسعكم من الولاء، احملوا له غاية التوقير

والاحترام، أصيخوا السمع إن أردتم حتى لما يثار حوله من خرافات غير أن القضية التي نحن بصددها هي: هل هذا الإجلال أو هذه الخرافات لها أن تقف لحظة واحدة في طريق الولاء الذي يحمله كل إنسان، أيها السادة، إنني لا أفكر لنفسي ولا أفكر من أجل زملائي المتهمين معي، ولكني أفكر لكم، إنه من سوء الحظ أن ليس بينكم مسلم واحد؛ فثلاثة منكم مسيحيون، واثنان هندوكيان، ولكن ذلك لا يهم مطلقاً، فإنني إنما أخاطب أناساً من البشر، إنني أخاطب هنوداً في الأعم الغالب، لا أدري إن كنتم جميعاً هنوداً، ولعل واحداً بينكم غير هندي – إنجليزي مثلا! –ولكنه استقر في الهند ليتخذ منها موطناً، وهو على هذا الاعتبار يمكن أن يعد هندياً! ولذلك فإنني أخاطب على الأقل أكثرية منكم قدموا من بلاد مشبعة بالروح الدينية وهي تقليدياً بلاد روحية جاهدت خلال العصور لإعلاء شأن الروح على الجسد.

أيها السادة، إننا نسمع كثيراً عن التسامح في هذه الأيام المستنيرة، ولا أحسب أن أحداً حتى المدعي العام يخالفني إن قلت إننا جميعاً بحاجة إلى هذا التسامح، إن الحكومة البريطانية لم تكلّ من ترديد قولها بأنها حكومة متسامحة، وأن الحكم البريطاني حكم موطد على أساس التسامح، ولست أظن أن هناك حكومة في هذا العالم المتمدن في هذا القرن الموفي على العشرين تجرؤ على القول بأنها تخالف قاعدة التسامح، ولكن، ما التسامح بعد كل ذلك؟ إنه كما ورد في القول المشهور: (سيدي، إنني أخالف كل كلمة مما ذكرت، ولكنني سأقاتل لآخر قطرة في دمي دون حقك في أن تقول ما تريد، ذلكم هو: أي أنه مطلوب حين يقع الخلاف، وحيث يكون الناس على غير رأي واحد، وحيث يتخذ الناس وجهات نظر مختلفة جد متباعدة، وإلا فلا معنى للتسامح، ولكنني مع ذلك لا أنكر أن من الناس من يحمل فكراً خرقاء، وللأسف كثير ما هم، وأحسب أن المدعي العام وهو فرد من الناس لديه بعض أفكار في غاية الحمق، ولا نزال ننتظر لنرى ماذا يحمل لنا القاضي من الرأي، وسنعلم ذلك بعدما أحمل على الصمت، وليس السؤال هنا ما إذا كان حكم الشخص صائباً أم خاطئاً، فقد يكون في أحكام الناس الغباء، إلا أنه، إذا ما أعطاك رجل أو هيئة من الرجال ضماناً لتحمل بحرية آراءك الخاصة وتطبقها، فإنني أعتقد أن من واجبهم أن يلتزموا ذلك الضمان.

نريد أيها السادة أن يفهم العالم قضيتنا، ونحب أن تذكروا أن القرار الذي ستتخذونه هنا لا ينحصر منتظروه في الحاضرين في هذه القاعة، أو عشرات الألوف من سكان كراتشي، لقد قيل آنفاً إن القرار

الذي اتخذناه في مؤتمرنا الإسلامي لم يكن معنياً به الذين حضروه من بعض العلماء وبضعة آلاف من الناس. إنما اتخذ ليتلقاه عدد أكبر؛ وهذه المحاكمة كذلك تهم أكثر من مستمعي هذه القاعة، أكثر من حضراتكم الخمسة دون شك بل هي في الحقيقة تهم العالم أجمع، إننا نبتغي حقنا في التمتع بحماية القانون لعقائدنا وتعاليمنا الدينية المتميزة،ولتتدم الحكومة فتقول: إننا قد رأينا خطأ سبيلنا (ملتفتاً إلى "مستر رُس ألستن ROSS ALSTON") هذه هي الكلمات التي يريدها صديقي المستر ألستن لتكون آخر قولي، وإنها لسوف تكون كذلك، ولكن بالنسبة لما هو جدير بالحكومة أن تفعله (ضحك) ولكن هل ترى تقول الحكومة ذلك؟ وهل هي ملتزمة عهدها في إطلاق حرية العقيدة؟ أم أنها ستقول: كلا إننا أقوياء، إننا أشداء، إن لدينا مدمرات، إن لدينا طائرات، إن لدينا هذه المرافق الحربية جميعاً، إن – لدينا مدافع رشاشة– إننا قد دحرنا أقوى أمم أوربا، وإن كان في حلفنا – طبعاً– ستة وعشرون دولة! (ضحك) وكذلك رجال الهند وأموالها وسائر مواردها، ولكن هذه مسألة أخرى ! (ضحك) فلا يمكننا التسامح حيال آرائكم وتكاليفكم الدينية. إنها إن قالت ذلك فهو شيء نفهمه ومهمتنا لذلك ليست الدفاع عن أنفسنا، ولكن إظهار هذه القضية واضحة، لأنها قضية وطنية، لا ، بل هي أكثر من ذلك، إنها قضية يتوقف عليها إلى حد كبير تاريخ العالم، هل كلمة البشر في هذا القرن المتحضر ألزم ولاءً من كلمة الله؟ إن القضية ليست "بين محمد علي وستة آخرين من جهة، والحكومة من جهة أخرى،" ولكنها قضية "الله مع البشر" فهي لذلك بين الله والإنسان" هذه هي الدعوى، والمشكل كله "هل سيكون السلطان لله على الإنسان أن للإنسان على الله؟

أيها السادة، لقد كنتم هنا ولم تكونوا المقصودين إذ أبينا القيام حين طلب منا القاضي أن نقوم، لقد اتفق أن تكونوا هنا، ولقد جهدنا دائماً في ألا نظهر للقاضي إلا كل احترام، ولسنا من الحمق بحيث نختلق مضايقات لا لزوم لها لإثارة القاضي واستفزازه، إننا لا نحمل حقداً عليه، وكل ما في الأمر أن ذلك كان لاعتبار احترام الإنسان مخالفة لاحترام الله، وكما قال أخي في محكمة البداية، وكما أقول لكم الآن إننا لا نعتبر الملك ملكنا بعد الآن، إننا لا ندين بأي ولاء لأي إنسان يحول بيننا وبين حقنا في إخلاص ولائنا لله، ليس لدي كلمة أقولها ضد الملك بالذات أو العائلة المالكة، ولكن عندما يكون الأمر أمراً "لله" ضد أية حكومة لا تطلب مني أن يكون احترامي الأول لله وشريعته، ولذلك كانت القضية كلها في الحقيقة كما قلت بين الله والإنسان.

لقد عرض المدعي العام مرافعته بمهارة فائقة، وعندما تعرض لمعتقداتنا الدينية وأحكام الله، كان حريصاً على تخطيها بالسرعة الممكنة، وقد كان يتزحلق على جليد رقيق، فترك كل ذلك ظهرياً إنني الآن أتحداه، إنني أتحدى القاضي ليصدر قراراً في هذه النقطة، إنها ليست مسألة حقيقة تلك التي عليكم معالجتها أيها السادة المحلفون، فإذا عالج القاضي قانونه في تقديره، وحكم علينا، وإذا اتخذت هيئة المحلفين في هذه القضية – التي تمثلون فيها دور المحلفين – قراراً ضدنا، وإذا هو استعمل حقه كقاضٍ بالنسبة للوقائع والقانون في القضايا التي تعطون فيها آراءكم كمستشارين فحكم علينا غير معتبر التزاماتنا الدينية، فعندئذ تتضح طريقنا، لا شأن عندي للعقوبة التي تنتظرنا، ولا تحت أية مادة من مواد القانون ستحل بنا، إذ هناك عدد من هذه المواد: 120ب 131، 109، 505، 117، وهكذا. . . وبالنسبة لهذه المواد والتهم المتعددة ما دام يعنيني أمرها، فقد اختلط عليّ الأمر جداً، وإنني أحاول أن أحصي مجموع السنين التي سيحكم بها عليّ (ضحك) إنني لا أملك سوى حياة واحدة، ولا أدري إن كانت كافية لتشمل هذه السنوات العديدة إذا عوقبت بما أستحق (ضحك).

ولكن ذلك لا قيمة له مطلقاً، إن الذي أريد هو قرار من المحكمة نيابة عن الحكومة بأن محاكم الهند ليس في مقدورها منح أية حماية لكل من يفعل مثل الذي فعلت – مع أنها تقر أن الذي فعلت أمر تكلفني به عقيدتي ويأمرني به ربي – إن الله بجلاله ينادي من علياء عرشه الخالد "أيها الإنسان الذي خلقته من علق، ورفعته إلى ما هو فيه من القوة والمجد، مهما تكن، ومهما يكن لديك، فإنني أنا الذي أعطيتك، فاعبدني ولا تعبد أحداً من خلقي دوني/ فمهما يكن ما قد أحمله من احترام للملك فإنني لا أملك ولا أستطيع أن أخضع له حين يدعوني ألا أخضع لله أو أن أعصي أمراً من أمره.

لقد تعرض القاضي لمعتقدات بعض الطوائف فافترض فئة من الهندوك تعتقد بتقديم القرابين البشرية، وكذلك قال المدعي العام إننا منقسمون على أنفسنا طوائف وشيعاً يستحكم بها النزاع وكل تدعي الحق لأهلها!

لا مجال هنا أيها السادة لتتبع الحق أو الفساد في العقائد، ثم إن العقيدة التي نحيا بها ليست عقيدتنا وحدنا إنها عقيدة كل مسلم. . وهبوها عقيدة طائفة معينة فهل تقصدون أن نداء الملكة سنة 1858 (في حماية العقائد) قد اشترط أن يتفق ثلاثمائة مليون من البشر في الهند مع أهل الأرض والسموات، وأهل الكواكب السيارة، وسكان

القمر وقاطني المريخ، كل أولئكم لابد أن يتفقوا على العقيدة الصحيحة حتى يقدم النداء حمايته؟! إنه لا داعي للتفكير في حماية مثل هذه العقيدة!

ليست هذه القضية قضية اعتقاد فرد ما، أو فكرة عدد محدود من المسلمين – وإن كان لا يسوغ لكم بحال المساس بالمشاعر الدينية لجماعة مهما قل عدد أفرادها – إنها قضية هذا الدين الإسلامي؛ فما من فرد يدعي أنه مسلم يستطيع تخطي حدود هذا الكتاب (مشيراً إلى القرآن الكريم)انظروا إلى هذه الترجمة الإنكليزية: هذا كتاب مليء بالمعاني المكررة، ولا يتجاوز ما بين دفتيه خمسمائة صفحة، وهو مع ذلك يشكل المصدر الرئيسي لقانوننا الديني، وأود هنا أو أوضح ذلك حتى لا أدع مجالاً لسوء الفهم، فينبغي أن تعلموا من أين تستقى تعاليم الإسلام. إن أصل الدين كله تحويه دفتا هذا المجلد الدقيق؛ ثم يأتي بعده في الدرجة الثانية أحاديث الرسول، وبالنسبة لذلك المصدر الأصيل (مشيراً إلى القرآن الكريم) ليس هناك في المسلمين من يختلف حول صحة مقطع واحد فيه! ولذا تجدون أن هناك أساساً صخرياً راسخاً لعقيدتنا لا أثر للخلاف بين وجهات النظر حياله، أما أحاديث النبي فإنه لو روي لنا حديث بسنده مما ورد في هذا الكتاب فليس هناك في المسلمين من يقبل ذلك الحديث، فإننا لا نقبل ما ينسب إلى الرسول إن كان مخالفاً للقرآن، أما إذا كان مفسراً له أو مفصلاً لمجمله فعلينا عندئذ قبوله..

إنكم عند تسجيل المتطوعين تأخذون عليهم تعهداً كتابياً وتلزموهم بقسم مخصوص، وهاكم اللائحة. (مبدياً اللائحة) في هذه اللائحة تجدون هذا السؤال: (هل تتعهد بالذهاب حيثما تؤمر في البر والبحر؟. .)وعلى كل جندي حين ستقدم متطوعاً للجندية أن يجيب بالإيجاب على هذه الأسئلة ويمضي اللائحة، فلنفترض أن الرجل هندوكي، وأن الضابط أمره أن يذبح بقرة ليجهز له لحمها. إنه يرفض ذلك ولا ريب، ويتلو له شواهد من كتابه المقدس، وليس هناك فقرة من قانون العقوبات الذي بين أيديكم تمكن القاضي أو المحلفين ليقرروا أن هذا الرجل مذنب تنفذ عليه العقوبة لأنه يتصرف وفقاً لتعاليم دينه، قولوا بإمكان ذلك حتى أكف فأجلس!. . كلا أيها السادة، عليكم أن تكتبوا على كل فقرة في الدستور الجزائي، وعلى كل قانون، تلك العبارة المحببة التي يستعملها المشرعون: " دون إجحاف " بمعتقدات الرجل الدينية، قد تقولون بأن هناك من العادات المستهجنة مالا يمكن السماح به، وهنا عليكم أن تبينوا أي العادات تبيحون، وما هي الشروط التي يُنال تسامحكم حين نوفرها، إنه حتى القتل لا يعد قتلاً إن كانت تعاليم الدين تأمر به، وقد أعطى

النداء حماية القانون لتلك الديانة، وقد تقولون إن في هذه البلاد الكثير من الديانات والمذاهب، إذن فعليكم أن توضحوا الشروط التي لابد من توفرها في الديانة حتى تستحق الحماية، فإذا أوفى بها المواطن يعتبر موالياً، وكل من تسول له نفسه بالخروج على هذا الولاء إما أن ينفى من هذه البلاد، أو أن يطردكم لينعم بالعيش فيها!.

إن صاحبي المدعي العام كان أخبركم بأننا قوم في غاية الإخلاص، وأننا صرحاء لا نعرف المواربة، إنني أشكر له هذا الثناء، وإنه إن كان أقر به لحاجة في نفسه فإنني سأحاول الاستفادة منه لبلوغ مأربي أيضاً.

أيها السادة، إنكم ستعلمون الآن أننا لسنا القوم الذين يسهل إرهابهم ليعمدوا إلى الكذب حتى يتفادوا القصاص إن كنا نستحقه بموجب هذه البينات التي بين أيديكم، وكلها تافه لا قيمة له، وإنني لن أشغلكم بتوافه الأمور، ومحور القضية كلها: هل يعطي نداء الملكة الحرية للديانة الإسلامية أم يستثنيها؟ فإذا كنا نطلب من الجندي المسلم أن يتخلى عن خدمته في الجيش البريطاني وأن يأبى التطوع ويطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك، ونعلن ذلك ونثبته من القرآن فإننا في تلك الحالة لا نكون مذنبين، ولا سيمكنكم معاقبتنا؛ فحيث لا يخالف قانون العقوبات القرآن يسري مفعوله، فإن خالف القرآن فقانون العقوبات لغو فارغ.

إن القاعدة العامة تقتضي أن يحاكم الأشخاص فرادى، وأن تبحث التهم واحدة واحدة كذلك، وإلا فقد يتأثر القاضي والمحلفون فيميلون بأحكامهم، إنني لا أعلم سبباً لهذا الخلط في الاتهام إلا أن يكون ممثلو التاج قد اتفقوا على مؤامرة (ضحك) فحشدوا هذا العدد العديد نمن مواد القانون ليشتبه الأمر على الجميع، ولا أدري إن كان منكم من فهمها بوضوح، أما من جهتي، فلم أستطع أن أفهم على وجه التحديد ماذا كان الاتهام الأول، وكذلك الثاني، وما الذي هو من شأن القاضي، وما الذي هو من اختصاصكم كمستشارين، كل ذلك لم يتضح لي حتى اليوم، وإنني لما أحضرت إلى هنا من والتير (WALTAIR) سألني واحد من الشرطة الذين كانوا يخفرونني في القطار الخاص عن التهمة التي أخذت بها فلم أدر بم أرد عليه، ولكنني أخبرته أن لائحة اتهامي تستند إلى المواد 120و 131و205و117 فعلق الشرطي ساخراً بقوله: (إنهم يحشدون من المواد ما يشاؤون، وهي على كل حال مواد من صنع محلي) (ضحك).

لست أدري إن كان منكم أيها السادة من لعب البليارد. . تستخدم في هذه اللعبة كرات ثلاث، وتربح بأن تضرب كرتك بحيث تصيب بها الآخرين، أو تصيب إحداهما ثم تسقط في إحدى الحفر المعدة في منضدة اللعب، أو أن تدفع بهما إلى الحفر، وقد يتفق أن يكون وضع هذه الكرات (المنحوسة) على المنضدة بشكل تحار معه كيف تصنع حتى تنجح الضربة؛ وهذه الحالة تحصل عادة بصورة مزعجة للمبتدئين على الخصوص، ونصيحة الخبراء حينئذ أن يقولوا: اضرب بقوة ودع النتيجة للحظ والمصادفة!(ضحك) وليس بمستبعد أن يكون الكسب بذلك؛ وهي في نظر خصمك رمية من غير رام، وهي ضربة في غاية الصعوبة طبعاً في نظره (ضحك).

ذلك أيها السادة في الواقع ما فعلته النيابة بهذه الاتهامات، لقد ضربت بقوة، وهي تعتمد عليكم وعلى القاضي في الكسب، فقد تصيب من هذه المواد العديدة واحدة أو اثنتان!! (ضحك).

لقد عرفت بالصراحة، فإننا قوم جد صرحاء، ولكم أن تتأكدوا أننا صادقون كذلك، وفيما يختص بأية قرارات كانت لتعلن بها القوات المسلمة المسلحة في الهند –حتى ما يختص منها بتعاليم الإسلام– فليس أمامكم من الاتهامات ما هو أكبر من ذلك القرار، بيد أنه في الوقت الذي يدعي فيه المرء بأنه مسلم، عليه أن يلتزم ويخضع لكل ما ينص عليه القرآن الكريم؛ فإني إذا أعرضت عن آية واحدة منه، فإنني حينئذ لا أكون مسلماً، بل قد أكون شر الخاطئين، وقد أبلغ الغاية في الإثم، غير أنني ما دمت لا أنكر شيئاً قط من هذا الكتاب فإنني لا أزال أعد من المسلمين: ولكن منذ اللحظة التي أعرض عنه مهما كنت تقياً لا أكون مسلماً، إن كل ما تحويه دفتا القرآن يطالب المسلم بشرع القرآن نفسه أن يبلغه للناس كافة حتى غير المسلمين، خذوا مثلاً صديقي الجليل هنا مولانا حسين أحمد شيخ الهند، وقد كان قبض عليه في الحجاز حيث أمضى من عمره عشر سنين يدرس أحاديث الرسول في المدينة، فأخذ إلى مصر ثم إلى مالطة، فلو فرضنا أنه جلس خارج بيته وتلا من القرآن هذه الآية: ((ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً[2]))ولنفرض أنه أثناء تلاوته مر جندي مسلم، فهل تقولون بأن مولانا حسين أحمد قد اقترف جريمة بمقتضى المادة (505) من قانون العقوبات الهندي؟ إذا كنتم تقولون بذلك فلم كل هذا الكلام عن التسامح؟! وافرضوا أن جندياً من مسلمي الهند دخل

[2] سورة النساء:93

المسجد حيث يؤم الصلاة مولانا، فهل يكون مولانا مجرماً إذا تلا تلك الآية في الصلاة بحضوره.

وهاكم قضية أخرى: جندي يأتي إليه فيقول: (أريد يا مولانا أن أعرف حكم الإسلام في هذا الأمر: إنني مطلوب للسفر إلى (ميسوبوتاميا) للقتال ضد الخلافة، فهل يحل لي أن أذهب فأقاتل المسلمين؟) فيجيب مولانا إن ذلك غير جائز، لأنه إن أفتى بجوازه يصبح كافراً، وإن أمسك ولم يتكلم تلحقه لعنة الله والعالمين [3] ولذلك يتحتم عليه أن يقول☹لا) إن ذلك لا يجوز، فإن واجبه كمعلم ديني عندما يأتيه من يستفتيه أن يوضح له بالصدق حكم الإسلام، فإن لم يستطع خشية قانون العقوبات فإنها هاهنا – والحق يقال_ تتنزل اللعنة.

خذوا مثلاً آخر: يسافر مولانا في قطار فيصادف جنوداً مسلمين ذاهبين إلى (ميسوبوتاميا) لقتال جنود الخلافة أو من أعلن الجهاد من المسلمين، فيعظهم مولانا بأن ذلك محرم في الإسلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[4] فهل يحال بذلك بين مولانا وحماية القانون؟ قد

[3] إشارة إلى الآية الكريمة☹(إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون))(البقرة:159)

[4] رواه البخاري.

تقولون: لا بأس بأن يجيب بذلك عندما يسأل عن حكم الإسلام كواعظ ديني، ولكن ليس من واجبه أن يعتلي سطح المنزل وينادي من فوقه بذلك، فإن عمله حينئذ يكون تحريضاً وإغراءاً تنطبق عليه المادة (505) والمادة (117). . وإنني أقول: إنه حتى في تلك الحالة تكون مؤاخذته من العسف الذي هو أبعد ما يكون عن التسامح، لأن القرآن يبين بوضوح من ينال الفوز في الآخرة ممن يحق عليه العذاب الأليم، واسمعوا هذه السورة القصيرة من القرآن حيث يقسم الله9 تعالى بالعصر فيقول:

((والعصر إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)).

إن الشروط الأربعة التي تلزم المسلم حتى ينال الفوز والنجاة قد احتوتها هذه السورة، وهي أقصر سورة في القرآن: إن خلاص الإنسان مشروط بأن يعمل بمقتضى عقيدة الإسلام، ثم هل تظنون أن من يعتنق الإسلام فيقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت، ولا يؤذي أحداً ، هل تظنون أنه بذلك يكون أهلاً للنجاة والفوز يوم الدين؟ كلا! لأن القرآن يقول إن الخطوة الثالثة (بعد الإيمان والعمل الصالح) أن تبلغ هذا الخير إلى كل إنسان، وعليك أن تدعو لهذه العقائد، فإنك لم تولد لتنجو بنفسك وإنما أوجدت هنا

لتأخذ بيد من حولك، ولذلك كان على المسلم القيام بهذه الواجبات الثلاثة: الإيمان بعقيدة الإسلام، والعمل الصالح بمقتضى هذا الإيمان، والدعوة إلى الإيمان بتلك العقيدة.

ولنفرض أن مسلماً يعتقد بأن قتل المسلم حرام فلا يقتل مسلماً، ولكنه يترك غيره يفعل ذلك، مثل هذا المسلم قد لا ينال النجاة. وإن هو لم يتقاعس، ونهض يذكر الناس بأن ذلك حرام فقد لا ينال النجاة كذلك حق يثبت على دعوته ويصبر ولو باء بالفشل، فإذا أخفق في الدعوة وابتلي فيها بأحكام المادة (505) والمادة (117) ونصبت أعواد المشانق فماذا يطلب منه؟ عليه أن يتجلد ويصبر! إنه قد يشنق وربما يغرق أو يصلب، ولكن الواجب هنا أن يثبت على دعوته؛ وبذلك ينال الفوز العظيم وينجو من الخسران المبين، ولا يجوز له بحال من الأحوال أن يخالف من تنزيل الله حرفاً واحداً، وعليه أن يلتزم بكليته ويواجه به جميع الظروف.

أيها السادة:

إن سيداً عسكرياً من أمثال الكولونيل جوير (COL GWYER) الذي يحضر هذه الجلسة، واسمه الكولونيل بيتش (col beach) ذهب إلى بومباي، وكما ورد في برقية لصحيفة بيونير (PIONEER) قابل هذا الضابط الشهم الذي قدم من قيادة الجيش في سملا بعض زملائي من مراسلي الصحف المحلية ووكالات الأنباء على مائدة مستديرة، وكان مما صرح به مناسبة إلقاء القبض على إخوان علي (ALI BROS)[5] مع أن القضية لم تزل في يد العدالة. (يقرأ من الجريدة) فيما يتعلق باعتدال ((إخوان علي)) يقول الكولونيل بيتش كعسكري ((إنه كان جديراً بهؤلاء الذين يحاولون إغراء الجنود للتحلل من ولائهم للحكومة أن يتفكروا قليلاً: هل يمكن للجندي الذي نكث ولاءه أن يعود موالياً لأي أمر مما كان موالياً له من قبل؟))

ذلك قول الكولونيل بيتش كما يخبركم بصفته العسكرية، مرحى كولونيل بيتش! (ضحك) إن ذلك يبدو رأياً سديداً ومنطلقاً ممتازاً بالنسبة لجندي! (ضحك).

ولكن لأتكلم كمسلم لا كجندي، هل لي أن أسأل: من هو المغري؟ إن كل طفل يولد في هذه الدنيا على الفطرة جندياً لله ثم يفتنه أمثال الكولونيل بيتش والكولونيل جوير ممن نصبوا أنسفهم للفتنة والتغرير فيبعدونه عن واجبه الأول وولائه الأوحد، وهل لنا أن نسأل كذلك هؤلاء أمثال بيتش وجوير: هل جنود الله الذين تحللوا مرة من ولائهم لله يمكن أن يعتمد على ولائهم لهم أو للغاية التي كسبوها من أجلها؟

---

[5] كان هذا التعبير يطلق على الشقيقين محمد علي وشوكت علي لشدة ارتباط جهاد كل منهما بجهاد الآخر.

إن الواجب الأول على المرء ولائه لربه، وإن القرآن يقول بأن أرواح البشر قبل أن تحل في الأجساد سألها الله تعالى ((ألست بربكم قالوا بلى))[6] إذن فاشنقوا هذه الأرواح جميعاً أيها السادة، فهناك كان أصل الاتفاق الذي تبحثون عنه لإثبات هذه المؤامرة الإجرامية بموجب المادة 120 (آ) و120(ب) (ضحك) كلا أيها السادة، إن صاحبكم بيتش وأمثاله في قيادة جيش سملا، وصاحبكم جوير وأمثاله من قواد الجبهة الغربية هم الذين يفتنون الجنود عن واجبهم، فإن كانت لديكم أية عقيدة، وإن كان لديكم أي إيمان بالله، فإن واجبكم الأول وولاءكم الأسبق إنما يكون لله رب العالمين، أليس ذلك من واجب المسيحيين الذين يؤمنون بالله؟ أليست تلك عقيدة الهندوك؟ أليس واجب الهندوكي الأول طاعة ربه كريشنا؟ . . ثم بعد ذلك لا نزال نتكلم عن الولاء للملوك!.

لقد أصدر كاتب إنكليزي، مسيحي غير مسلم يدعى هـ . ج. ولز (H.G.WELLS) كتاباً رمزياً بعد الحرب (العالمية الأولى) عن الشعب البريطاني ولا أدري إن كان اتفق لأحدكم أن قرأه، وعنوانه (مستر

---

[6] ((وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى)) ((الأعراف))

برتلنج يبصرها)[7]فماذا يقول؟ ماذا يرى مستر برتلنج المفروض فيه أن يكون الإنكليزي العادي خلال تلك الحرب المروعة؟ إنه يقول: إن رأس الأمر الدين، وإن غاية الأمر الدين، والمرء الذي لم يبدأ حياته به لا يتمتع بحياة حقيقية، ولا يجد المعنى الحقيقي للحياة، إن ولاءه الأول وواجبه الأوحد لله.. قد يتمتع ببعض التكريم، وقد ينال شيئاً من الولاء؛ غير أن هذا الولاء وذلك التكريم بمقابلته بالولاء والإخلاص لله، يذوي كالورقة التي يلفحها اللهب المشبوب، فتذرها الرياح الأربع، أو تلوث يد الممسك بها بالسواد.

ذلك ما كان يراه الرجل الإنكليزي العادي خلال هذه الحرب، وهو قول نشر على الملأ، ثم بعد الحرب يتخذ شرع الله ظهرياً بالنسبة لنا في الهند لأن قانون البشر - 120 ب و505 و 117 - يستعلي على شريعة الله!.

مما ينسب إلى المسيح أنه قال.. (تقاطعه هيئة المحكمة وتقف معلنة وقف الاستماع لجلسة اليوم قبل إتمام الجملة)

مولانا محمد علي: لا بأس أيها السادة، لقد أوقفتني المحكمة عند (المسيح) وسأحدثكم غداً عن لك القول الذي يعزى إلى المسيح.

---

[7] (MR. BRITLING SEES IT THROUGH)

(وبذلك انتهت مرافعة مولانا محمد علي في يومها الأول).

(في اليوم التالي انعقدت المحكمة في الساعة الحادية عشر صباحاً، وتابع مولانا محمد علي مرافعته موجهاً الكلام إلى هيئة المحلفين).

أيها السادة المحلفون:

كنت أوضحت لكم أن نداء الملكة قد أعطى حماية القانون لجميع رعايا الهند البريطانية في ممارسة شؤونهم الدينية اعتقاداً وتطبيقاً، وكنت قررت لكم أن ذلك هو أساس القضية، وأن العمل الذي يصدر عن أي شخص في الهند -مسلماً كان أو هندوكياً- ما دام هذا العمل مما يتصل بالتعاليم الدينية، فلا سبيل لقانون العقوبات أو أي قانون آخر مما حملت عليه الهند البريطانية ليقف دونه أو يصل إليه بجزاء لأن القانون يعطيه حماية تلك التعهدات. غير أنه لابد من إقامة الدليل بأن ما قام به من عمل هو مما تأمر به تعاليم دينه.

وكما أخبرتكم بالأمس، أن هذه المحاكمة في الحقيقة هامة جداً، لأن القضية الواضحة فيها هي: هل لشريعة الله أن تسود أم لقانون البشر أن يهيمن على شريعة الله؟

هل لنداء الملكة أو عهد الملكة أية قيمة؟ وهل القاضي ملزم بالعمل بهما وكذلك المحلفون؟..

إنه بوسعي أن أشرح قضيتي إذا كان القاضي قد أعد قراره، إنني لا أدري على أي أساس يتخذ ذلك القرار، ولكنه قرار هام على أية حال بالنسبة لهذه القضية.

ليس لكم أن تأخذوا قانونكم عن المدعي العام أو عني، غير أني أحب أن يكون واضحاً لديكم، أيها السادة المحلفون، إنكم إن منعتم اليوم هندوكياً أو مسلماً أو مسيحياً حقه في القيام بواجبه أمام الله والعمل بما توجبه عليه عقيدته ابتغاء ثواب الآخرة وخشية العذاب، ولم تسمحوا له أن يمارس تعاليم دينه، فإنكم بعملكم هذا تكونون شركاء في جريمة تدمير الحرية الدينية التي يتمتع بها الناس في هذه البلاد.

كنت أتكلم أمس عن مستر هـ .ج. ولز (H. G. WEES) في كتابه (الله ، الملك الذي لا يرى) وكذلك في كتابه الآخر، قصة (روح أسقف) إنه يقول بأنه ينسب إلى السيد المسيح عيسى عليه السلام قوله 0دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ثم يسأل: من هو ذلك القيصر الذي يشاطر الله في ملك هذه الدنيا؟ ما الذي يعتبر ملكاً لقيصر وليس هو في نفس الوقت ملكاً لله؟ أليست الدنيا مقسومة شطرين بين الله وقيصر، كلا فإن الله تعالى هو الحاكم الوحيد.. إن الملك، أو أي مخلوق وليكن رئيس جمهورية أو قاضياً أو عضو

هيئة محلفين، إذا طالبك بأمر فلابد أن يطلبه الله، أما إذا كان في تلبية ذلك الطلب ما لا يرضي الله فلا سمع ولا طاعة!.. ويقول مستر ولز (ويوشك هذا المذهب أن يكون هو الديانة العالمية الحديثة)وعلى أي حال، إذا صح ذلك أو لم يصح، فإن هذه الفكرة جزء من عقيدة المسلم بكل تأكيد إنها ليست عقيدتي الشخصية أو هواي وأوهامي، إنني أتحدى الحكومة وأتحدى المدعي العام أن يحضر مسلماً واحداً يقول غير ما قلت!!.

ألا فلتعلموا أن كل مسلم يعيش في الهند البريطانية – بل في أي مكان – إذا كان عليه أن يخضع لقانون البلاد فإن ذلك لا يكون إلا في حدود معتقداته الدينية، وهذا عين ما قلناه لنائب الملك سابقاً عندما كنا في المعتقل وعرض علينا شروطاً خاصة للإفراج عنا بأن نفعل هذا وندع ذاك، فقبلنا على شرط عدم المساس بعقيدتنا وكذلك منذ زمن بعيد أرسلنا كتاباً إلى نائب الملك بواسطة رئيس سجن بتول (BETUL JAIL) حيث كنا معتقلين قلنا فيه:

ولكن حيث أن الحكومة كما يظهر ليست تعلم كيف تصبغ عقيدتنا أعمالنا، وكيف ينبغي لأعمالنا أن تصطبغ بها – ومن هذه الأعمال ما بعد من الأمور الدنيوية – فإن شيئاً واحداً لابد من إيضاحه هو: أن الإسلام لا يجيز لأحد من أتباعه أن يصدر حكماً على مؤمن آخر دون برهان مبين، ونحن كذلك لم يكن باستطاعتنا بالطبع أن نقاتل إخواننا المسلمين ولما نتأكد من أنهم معتدون، أو أنهم لم يحملوا سلاحهم في سبيل الذود عن عقيدتهم.

إننا ى نريد أشخاص الحكام، ولكنا نريد بسرعة تأسيس حكومة مسئولة تجاه الشعب الهندي الموحد.

وقد أملنا أن نكون قد وضحنا الأمور بما لا يدع مجالاً للريبة أو سوء التفاهم.

وهنا أمر آخر لابد له من زيادة الإيضاح حيث أنه قد تبين لنا منذ ذلك الحين أن مبادئ الإسلام التي سنذكرها الآن ليست مفهومة عموماً، عند غير المسلمين كما يجب أن تفهم وخصوصاً في الدوائر الرسمية، إن عقيدة المسلم لا تقتصر على الإيمان ببعض المعتقدات والسير في الحياة بحسبها، بل لابد للمسلم فضلاً عن ذلك أن يبذل ما أوتي من جهد – دون اللجوء إلى الإكراه طبعاً – في تبليغ هذه العقيدة إلى غيره، حتى يؤمنوا بها ويخضعوا حياتهم لأحكامها، وذلك هو تعبير القرآن الكريم بالآمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهناك أحاديث كثيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين هذا التكليف الخطير في الإسلام.

ليس للمسلم أن يقول: لا شأن لي بأخي، فإنه لن ينجو حق النجاة إلا إذا حض أخاه على فعل الخير ونهاه عن الشر، فإذا أكره مسلم على أن يخوض حرباً ضد مجاهد المسلمين فليس عليه أن يأبى مخلصاً وحسب، بل لابد – ما دام يقدر الفوز في الآخرة حق قدره– أن يجتهد في إقناع إخوانه حتى يأبوا إباءه، هذه هي عقيدتنا وعقيدة كل مسلم، وهي التي نطالب لنعيش بها أحراراً، فإذا ما حيل بيننا وبين تبليغها فلابد من أن نصل إلى القول بأن المواطن الذي تحد منه هذه الحرية لا يكون وطناً آمناً لعقيدة الإسلام.

لقد كانت التهمة الأولى التي وجهتها لنا الحكومة في السابق إنه (خلال الحرب احتيج إلى المسلمين، مع التحدي لالتزاماتهم الدينية..) لاحظوا التعبير أيها السادة، (لمساعدة الحكومة في خوض الحرب ضد الخلافة والمجاهدين) أتدرون ماذا صنع نائب الملك في ذلك الحين؟ إنه لم يشنقنا بموجب المادة 121، ولم ينفنا مدى الحياة كما تقتضي أحكام المادة 131، إن كل ما فعله أن أطلق سراحنا وأعد لإرسالي إلى إنجلترا حتى أوضح شريعة الإسلام لرئيس الوزارة وأعضائها هناك، ونحن الآن ولنفس السبب، نحاكم على مؤامرة جنائية.

ليت شعري ما الذي يميز حالتنا عن غيرنا من المسلمين؟ وما الموقف في هذه القضية تجاه تلك الآلاف، بل مئات الآلاف ممن يقولون اليوم بنفس ما نقول؛ لم لا يحاكمون معنا؟ ولقد كنت شكوت من تفكك الاتهام لأن عدداً كبيراً من المتهمين يحاكمون على عدد كبير من التهم، ولكنكم لن تجدوا قاعة تتسع لمحاكمة الذين يجاهرون بتلك العقيدة مرة واحدة.

كما قلت مكرراً إنها ليست اعتقاداً فردياً، وأنا الذي عشت مع رجال الإنكليز، وذهبت إلى إنكلترا لتلقي العلم في أكسفورد، أنا الذي كنت على أتم صداقة مع الشعب الإنكليزي، إن عليّ مع كل ذلك أن أقول بأنه لا ينبغي لمسلم أن يخدم في الجيش البريطاني حيث يحمل على قتل إخوانه في سبيل الباطل، لأن من واجبي أن أقول ذلك.

لقد قلت سابقاً، وأقول الآن ولا أزال أردد ما حييت بأن ذلك غير جائز في الدين، وما أبالي أن أعلق على المشانق؛ وإنني لأرجو أن تنادي رفاتي من باطن القبر أن هذه هي عقيدة المسلمين.

وبعد فلنأت إلى التهمة الأولى الموجهة ضدنا الآن،والتي تجلسون للقضاء فيها كمستشارين.

لقد بلغتم ورأيتم بأنفسكم أنه لم يؤت بأي شاهد ليثبت أنه كان هناك أي اتفاق في أي وقت من الأوقات، لقد سألكم صديقي هنا (المدعي

العام) أن تأخذوا بالاتهام على أساس الاشتباه، أي اشتباه؟ هل تراكم على عزم شنقنا بسبب هذا الاشتباه الذي لم تقم أدنى قرينة لإثباته؟!!

ما من أحد قط شهد بأنه رآنا أو سمعنا أو اشتبه بأننا في مؤامرة أو اتفاق لارتكاب أي ذنب من الذنوب، لقد كنت في إنكلترا في شهر فبراير 1920، ولعله في نفس اليوم الذي كنت فيه أقابل القائم بأعمال سكرتارية الدولة، انعقد مؤتمر في كلكتا اتخذت فيه قرارات معينة، هذا كل ما كان من دليل ضدي، ومع هذا فإن على هذا الاشتباه أن يقوم مقام الدليل عند المدعي العام وإن أية قرينة كافية لنفينا مدى الحياة.

أيها السادة، إنني أستطيع أن أقول إنني لا أعرف شيئاً عن هذه المؤامرة، إنني لم أعلم متى ذهب شقيقي إلى أسام (ASSAM) إنني لم أعلم شيئاً عن ذلك حتى قام المدعي العام وقال بأنه سيأتي بشاهد لإثباته؛ وبذلك علمت للمرة الأولى أن أخي ذهب إلى هناك.. ذلك الماكر!! إنه يذهب دون علمي؛ وبجريرته أنفى مدى الحياة! إن ذلك أسوأ ما في أن يكون المرء شقيقاً أصغر (ضحك).

إن ذلك لا يعتبر دليلاً على الاتفاق لارتكاب عمل جنائي، وليس لكم أن تزعموا ذلك، ولابد للتهم من إثبات لا شبهة فيه. بالنسبة لمؤتمر كراتشي إن لشقيقي منفذاً من الاتهام به من حيث أنه لم يتكلم فيه، ولكن المدعي العام يستطيع أن يسد تلك الثغرة أيضاً:

كان لمزارع في استراليا ابن على حظ من الذكاء قليل حتى لقد كان يدعوه الناس الأبله، وحيثما صحبه أبوه نال بسبب بلهه نوعاً من المهانة، وقد دعي الوالد إلى حفل مرة؛ وأصر الابن على مصاحبته، فأبى الوالد خشية أن يتكلم ابنه بين الناس فيدركوا أنه أبله فتلحقه مهانة أخرى. غير أن الابن وعد بأن لا ينطق في الحفل بكلمة، وبعد لأي قبل الوالد أن يصحبه على هذا الشرط، وهناك جلس الابن في ركن قصي؛ وقد تقدم لمحادثته عدد من الناس فلم يجب واحداً منهم بحرف، وعندما تقدم آخر ليلقي إليه سؤالاً قال له أحد الضيوف: (ما فائدة سؤال هذا الرجل، ألا ترى أنه أبله؟..)وفي الحال صاح الابن بأعلى صوته منادياً أباه الذي كان يجلس منه في الطرف الآخر من المائدة: أبي، لقد عرفوها مع أنني لم أتكلم!(ضحك)

وهكذا حرز المدعي العام أن أخي كان متآمراً في مؤتمر كراتشي مع أنه لم يتكلم!

واستأنف مولانا محمد علي مرافعته فقال:

إن المسلم الذي يرتضي الإسلام ديناً، ويهتدي بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم موافق ضمناً على عدم شرعية انضمامه إلى جيش يحارب المسلمين، ويقتلهم بغير حق، وعلى ذلك فالقرار الذي تتهموننا باتخاذه في مؤتمر جماعة العلماء لم يكن سوى حكم معلوم واضح في الإسلام أعلناه.

إلا أن هناك عدا عن ذلك قرار اتخذناه بكل عزم وتصميم، وهو أنه إذا اتخذت الحكومة البريطانية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سرية أو علنية، أي إجراء عدائي ضد حكومة أنقرة [8] فإن المسلمين في الهند سيضطرون إلى أن يلجأوا إلى العصيان المدني تضامناً مع المؤتمر، وأن يعلنوا في المؤتمر القادم في (أحمد أباد) استقلال الهند وتأسيس حكومة جمهورية فيها.

أيها السادة، لم يكن إعدادنا فقط للعدوان البريطاني السافر ضد حكومة أنقرة، ولكن للإجراءات السرية أيضاً، وسواء المباشر منها وغير المباشر، أجل غير المباشر بواسطة اليونان.. إننا نعلم جيداً سياسة الإنكليز: يعرف بعضهم في أكسفورد كرة القدم بأنها اللعبة التي تضرب فيها الرجل بقدمك إن لم تظفر بضرب الكرة، أما الرجبي (RUGBI)فهي اللعبة التي تضرب فيها الكرة بقدمك إن لم تستطع ضرب الرجُل! وكذلك يريدون إسقاط كل أمة، وعلى الأخص العثمانيين، ولكن على القاعدة المتبعة في لعبة الرجبي، فلا يقاتلون بأنفسهم إلا حيث لا يجدون من يقاتل عنهم!

أيها السادة، إن هذا الأمر خطير حقاً، وإننا ما زلنا على بينة مما نحن مقدمون عليه؛ وكل ابن أنثى من بيننا قد يشنق بسبب ذلك، ولقد كان خيراً لنا أن نعدم رمياً بالرصاص بدلاً من إحضارنا إلى هذه القاعة لنشهد هذه المهزلة في محاكمتنا: للقاضي والمحلفين، وكل ما يتبع ذلك من أدوات.. ولقد كان الأيسر اختصار هذا الطريق الطويل الملتوي، فلا اتهام ولا قضاة، ولا محلفون، وكل ما في الأمر فريق من الرماة يقودهم الكولونيل جوير، أو الكولونيل بيتش، وفي لحظة انطلاق البنادق ينتهي الأمر.

لقد ورد في القرار، ((يضيف هذا المؤتمر معلناً بجلاء أنه بموجب الشريعة الإسلامية يحرم إطلاقاً الخدمة والتطوع في الجيش البريطاني، وكذلك الدعوة إلى ذلك))

وعلى هذا فجريمتنا أننا أعلنا حكماً في الإسلام، فإذا كان في إعلان حكم الإسلام ذنب فقولوا في هذه الحالة يكون إعلانكم لأحكام مسيحية جريمة أيضاً، وكذلك الهندوك الذين يعلنون أحكام دينهم

---

[8] عاصمة الدولة العثمانية، وكانت تعتبر حينئذ ممثلة للخلافة الإسلامية.

اتباعاً لتعاليمه مجرمون، فإذا طلبوا من هندوكي ألا يقتل بقرة يكونوا مذنبين لاتفاقهم على ارتكابهم جناية أو مؤامرة إجرامية!!..

ولنأت الآن إلى الاتهامات التي تختصون بالنظر فيها كمحلفين.

إنكم وحدكم المقررون في هذه الاتهامات، وإنني لا أحب أن تختلفوا بشأنها في قراركم، إنني أرجو أن تتفقوا سواء أكان قراركم لنا أو علينا، فلا تدعو مجالاً للقول بأن المحلفين الهندوكيين جنحوا إلى رأي والمحلفين المسيحيين بدا لهم رأي آخر، إنني أؤثر أن تكونوا متحدين في أمر على مبلغ من الخطورة كهذا، ولتكن نفوسكم منقادة لضمائركم وحسب، فذلك هو الدستور الأساسي للعقائد جميعاً، عليكم أن تتبعوا الحق وتعملوا بما يمليه الضمير.

إن الاتهام الذي من صلاحيتكم أن تقرروا بشأنه هو مسألة (المحاولة) المنطبقة على المادة 131 (يقرأ المادة).

رئيس المحكمة: إنكم متهمون بعضويتكم في مؤامرة تهدف إلى فتنة القوات المحاربة.

محمد علي: إننا متهمون بأننا أعضاء في مؤامرة، أي متهمون بأننا اتفقنا على فعل إجرامي، وبتتبع هذه المؤامرة تبين أن أحد المؤتمرين في الواقع عمل كل هذه الأعمال، وليس المهم أن يكون الفاعل نحن أم غيرنا حتى نؤخذ بجريرته! إن الفاعل في الحقيقة هو مستر رس ألستن (ROSS ALSTON مساعد المدعي العام) إذ يأتي بجاهل من (الله أباد) ينسخ له شيئاً من فتوى العلماء مع أنه يجهل القرآن جهلاً تاماً، إنه لابد من العناية في تنفيذه فيأتي بجاهل لينسخها! إن أي مسلم يشعر برهبة تهزه إذ يقدم على نسخ شيء من القرآن خشية الوقوع في خطأ يعزو به إلى الله ما لم ينزله في القرآن، غير أن هذا الجاهل يقدم على النسخ وينشر ذلك إرضاءً لمستر ألستن فيطبعه في الله أباد أو في لاهور، ويحصل على النوع المطلوب من الأغلفة، فترسل من عدة مراكز وعلى الخصوص من (الله أباد) حيث مقر مستر رس ألستن! وأنتم عليكم أن تنفوني مدى الحياة من أجل هذا!!

هذا هو الذنب الذي افترض أننا فعلناه. إن (الله أباد) مقر مستر رس ألستن واثنين من ضباط المباحث الذين شهدوا ضدنا، أفلا يكون ذلك كافياً لأن يتهم مستر رس بأنه هو الذي فعلها ما دام مجرد الإقامة في الله أباد كان كافياً لاتهامنا بإرسالها؟!

ألهذا تقررون النفي لي بعيداً عن أهلي، بعيداً عن بلادي العزيزة، بعيداً عن مجال الجهاد في سبيل الله فقط لأنها أرسلت من الله أباد؟!!

أتستبيحون لأنفسكم بناءً على هذا الادعاء إبعادنا مدى الحياة، هذه هي مذكرة الإدعاء، لا شيء فيها غير ذلك، وإلا لقاله صديقنا (المدعي العام)لقد استغرق أربع ساعات في مرافعته أمامكم، وبذلك كسب أجر يومه، وإن كان مرتبه يفوق مجموعه مرتباتكم (يقاطع)
ويستأنف محمد علي مرافعته:

يا سادة! أود أن أنشد قصيدة من نظمي، هو نظم هزيل لكنه لي، وكما قال تتشستون (TOUCHSTONE) : عندما قتل يوليوس قيصر، وجن جنون الشعب بسحر خطبة أنطونيوس، تجمع الناس على سنا (SINNA) الشاعر يريدون قتله يحسبونه سنا المشترك في مؤامرة قتل القيصر فصاح: (كلا كلا، أنا لست سنا المتآمر، إنما أنا سنا الشاعر!) ولكنهم قالوا (إذن فاقتلوه لشعره الرديء)

أيها السادة لا تنفوني نفياً مؤبداً لشعري الرديء! إنني أخاطب بني وطني وإخواني في العقيدة، وأقول لهم إنني أذكركم بواجبكم، أذكركم بإخلاصكم، أذكركم بالشرف وأطلب إليكم أن تكونوا أمناء على العهد الذي قطعتموه على أنفسكم أمام الله والناس (يلقي القصيدة).

أو ليس لي أقول للمحلفين: إذا لم يصدق هؤلاء القوم مع ربهم فاستباحوا مخالفة أمره، أينتظر منهم بعد ذلك صدق في ولائهم لملكهم في جيشه؟! (سكون رهيب في قاعة المحكمة) ربهم الذي وهبهم كل شيء: الحياة، الشرف العقيدة، الإخلاص نفسه، حق الملك..! لا الله فوق كل شيء؛ الله فوق الإخلاص، الله فوق الملك؛ الله فوق الوطنية؛ الله فوق بلادي ووالدي ووالدتي وطفلي! تلك هي عقيدتي، فاشنقوني إن شئتم! ولكن اعلموا أنكم بذلك إنما تنتحرون إذ تقتلون أرواحكم، ولا يغرنكم بعد تحرككم وسعيكم، فستكونون أجساداً تتحرك بلا روح، وجيفاً تصلح للغربان طعاماً.

أيها السادة، إن الحكومة هي التي تعمد إلى فتنة الجنود عن الصراط السوي، ونحن إنما نريد إرجاعهم إلى إخلاصهم الفطري لله، وحيث أن لكل قاعدة شواذاً فإن القانون يقول: (إنها لا تبلغ أن تكون جناية -في حدود مقتضى هذه المادة (505)- إذا كان الشخص الذي يصدر أو ينشر أو يبلغ أي بيان أو إشاعة أو تقرير، لديه أساس معقول يحمله على الاعتقاد بصحة ذلك البيان أو الإشاعة أو التقرير).

رئيس المحكمة: اقرأ المادة كاملة يا سيد محمد علي.

محمد علي: سأفعل يا سيدي، ولن أترك صغيرة ولا كبيرة، فإن لم يكن للحكومة بد من رطلها من اللحم فلتأخذ ما تريد، إن المحكمة في قضية شايلوك حكمت له باللحم فقط ولم تسمح له بنقطة واحدة

يريقها من الدم المسيحي[9] أما أنتم فلكم أن تأخذوا ذلك أيضاً بغير حساب.

إن ذلك الاستثناء في القاعدة يعمل به حيث يستند البيان إلى أساس معقول يبرر الاعتقاد بصدقه، فإذا أعلنت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أفيكون ذلك من ابتداعي؟ كلا! إن ذلك عقيدة كل مسلم، ولا يمكن أن يكون إعلانها جناية يأخذ بها القانون، وأن كان يحتمل أن (تفنن) رجلاً عن ولائه للملك أو للحكومة، ذلك الولاء الذي تؤدي طاعته في بعض الأمور إلى معصية الله. أما الجناية الثانية فهي (حمل عشرة أشخاص أو أكثر على اقتراف مثل تلك الجريمة النكراء) وعلى ذلك فالمسألة الأولى هي مسألة البيان وصحة ما يستند إليه مصيره، بيان من أيها السادة؟ إنه ليس بياني، إنه حكم الله، إنه إعلان مؤسس على شريعة القرآن، ويعلمه كل مسلم يفهم القرآن، سأريكم أيها السادة ماذا على المرء أن يفعل عندما يتطوع في الجيش، وماذا عليه أن يدع (يقرأ قائمة شروط التطوع)

[9] إشارة إلى مسرحية شكسبير (تاجر البندقية) وتتلخص في أن تاجراً مسيحياً استدان من شايلوك اليهودي مبلغاً من المال على أن يقتطع اليهودي من صدر التاجر رطلين من اللحم إن عجز عن الوفاء بالدين حين الاستحقاق، وقد عجز التاجر، فأصر اليهودي في المحكمة بكل قسوة على قطع اللحم والتزام ما ورد في العقد، وأخيراً كان الحكم السماح له بقطع اللحم على ألا يزيد أو ينقص عن الرطلين وألا يريق قطرة واحدة من الدم المسيحي.

لاحظوا أيها السادة هذا السؤال (هل أنت مستعد لأن تذهب حيثما تؤمر براً أو بحراً، وألا تسمح لشيء بالتدخل في واجباتك الدينية؟ إلا أنني أيها السادة لا أرى في القائمة مثل هذه الأسئلة: هل أنت على استعداد لأن تعمل أي عمل يخالف عقيدتك؟ أو هل تبدي أي اعتراض حين يطلب إليك أن تقترف إثماً من الآثام؟ أو هل تود أن تذهب إلى جهنم براً أم بحراً؟!

لقد كان تساءل المدعي العام فقال☹ إذا كان بعض الناس يعتقدون في تقديم القرابين البشرية، وطلب طفلك لهذا الغرض فإنك حينئذ تكون أول من يلجأ إلى حماية القانون) إنني على أي حال لا أطلب لنفسي حماية القانون. وأعتقد مع ذلك أن ليس هناك أية طائفة تطالب الآخرين بتضحية كهذه، إن الطائفة الوحيدة التي تطلب من الناس أن يضحوا بأبنائهم هي جماعة العسكريين! نعم، إنهم يطلبون ذلك. إن إلههم مولوخ[10]الاستعماري الشره يطلب تلك الأضاحي.إن جشعهم إلى المستعمرات يطلب تلك الأضاحي، يريدونها في كل مكان: في عرض البحر، وفي محيطات الله الواسعة التي على كل

[10] مولوخ (MOLOCH) إله العمونيين، وكانوا يقدمون له القرابين البشرية.

سفينة أجنبية تمر فيها بإحدى سفنهم أن تخفض علمها اعترافاً بأن إنجلترا (سيدة البحار) هؤلاء هم الذين يبتغون الضحايا من البشر!

وسألني القاضي (ما رأيك في السارق؟ أتريد تطبيقاً أن تقطع يد السارق؟!) وأقول: لو كانت الحكومة إسلامية لطالبتها برجم الزاني. وإن كان الزنى لا يعتبر جريمة في القانون الإنكليزي، إن صفقتي كمسلم مع حكومة إسلامية تختلف عن صفقتي كمسلم مع حكومة غير إسلامية، إني لا أطالب غير المسلم بسوى السماح لي بحمل معتقداتي الدينية، والعمل بموجبها دون التعرض لعقوبة، فإن ديني يفرض عليّ تعاليمه دون غيري ممن لا يعتنقونه، وقد فرض علي أن أعلن أمر الله الذي يحظر فيه على المسلم الانضمام إلى الجيش البريطاني وقتال المسلمين بغير حق، وأنّ من أفظع الخطايا قتل المسلم أخاه بأمر من الحكومة غير المسلمة، فهي الخطيئة التي تعتبر في منزلة تالية للكفر.

لقد كان آخر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته عندما دعا الحجيج في حجة الوداع وكانوا 175 ألفاً في (منى) أن سأل (أي يوم هذا) ..

رئيس المحكمة (مقاطعاً) إني أرى أن تكف! دع عنك شأن النبي!

محمد علي: غاضباً إنه لابد لي من الاهتمام بشأنه صلى الله عليه وسلم، عليك أن تسحب كلمتك.

شوكت علي: هذا بهتان وسفاهة!!

محمد علي: عليك أن تسحب قولك، لابد أن تستدرك! إن من واجبي الاهتمام بشأن رسول الله، وعليّ أن أقطع عنق من يسيء في حقه عليه الصلاة والسلام!!

رئيس المحكمة: يجب أن تكف وليس لك أن تستمر.

محمد علي: إنني إنما أفعل ما يسمح لي به القانون.

إن القانون يقول بأن ليس لي أن أدعو الجنود للتخلي عن واجبهم، وأنا أقول ليس من ولجب الجندي المسلم أن يقتل أخاه المسلم؛ ولي هنا أن أناقش هذه القضية إلى الأبد، فما دمت بسبيل إيضاح وجهة نظري فإن لي هذا الحق، امنعوني هذا الحق وأنهوا هذه المهزلة، ما جدوى هذه المسرحية؟!

خذوا فريقاً من الرماة ليعدمونا في الحال؛ وإذا شئتم إتمام فصول هذه الرواية الهزلية، حاكمونا بعد موتنا كما فعل اللورد نلسن من قبل؟

إنني أقول: إن شيئاً لا يجبر إنساناً على مخالفة تعاليم دينه حتى الواجبات العسكرية.

رئيس المحكمة:ليس ذلك في موضوعنا.

محمد علي: إنني أوضح تعاليم الإسلام، وقد قدمت ذلك في مذكرتي للمحكمة الابتدائية؛ إن ذلك في صميم الموضوع.

رئيس المحكمة:اجلس مكانك.

محمد علي: إني لم أناقش بعد المادة 505، ولم أتعرض بكلمة الاتهام بموجب المادة 117، فهل يحكم علي دون أن أقول فيهما شيئاً؟

رئيس المحكمة: لن أسمح لك بحق الكلام.

محمد علي: أرني جملة واحدة في كتب القانون التي لديك تخولك منعي ذلك الحق! لقد حرمتني حقاً إذ لم تسمح لي بتقديم مذكرة للمحلفين ضد الادعاء، والآن تريد أن تكفني عن مخاطبة المحلفين، إن لك أن تعترض على قسم معين من مرافعتي فتقول: دع الكلام في هذا، ولكن أنى لك أن تمنعني البتة بقولك: لان أسمح لك بحق الكلام؟!

رئيس المحكمة :(يردد قوله) اجلس لن أستمع إليك.

محمد علي: أتظن أنك مخول قانوناً حتى تمنعني ذلك الحق؟ إن القانون يقول: إنها لا تبلغ لتكون جريمة ما دامت في حدود الاستثناء الذي ذكر..

رئيس المحكمة: و . .

محمد علي: لا بأس عليك بشأن (و . .) إنني إنما أناقش صحة البيان، ولم أناقش بعد أمر (النية والقصد) فيه.

رئيس المحكمة: لن أستمع إليك.

محمد علي: إنني على أي حال أخاطب المحلفين، وليس لك أن تمنع المحلفين حقهم، فإن عليهم أن يعطوا رأيهم فيما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب، وذلك بمقتضى القانون الذي يقول (يقرأ) وأنا لا أستطيع أن أحل كلامك محل القانون.. كلا إنني لا أعتبر كلام أحد أمام النص الواضح في القانون.

رئيس المحكمة: ناقش قضيتك.

محمد علي: إنها ليست قضيتكم هي التي أناقش (ضحك) حسناً أيها السادة المحلفون..

رئيس المحكمة: لن أستمع إليك.

محمد علي: لك ألا تستمع إليّ كما فعلت من قبل أكثر من مرة لقد نمت أثناء جزء طويل من فترة تلاوتي للمذكرة، ولك أن تنام الآن، أما المحلفون فلابد لي من مخاطبتهم.

رئيس المحكمة: (غاضباً) ألا تجلس.

محمد علي: فإن لم أفعل؟. .

رئيس المحكمة: أضعك تحت الحراسة!

محمد علي: دونك ما تريد!

(مدير البوليس يدعى ليجلي المتهم ولكنه يتراجع دون أن يمسه ويتركه واقفاً، المحكمة تأمر المحضر لينادي على المتهم رقم (2) مولانا حسين أحمد صاحب، المحضر ينادي، ولكن مولانا حسين أحمد لا ينبس ببنت شفة أو يتحرك قيد شعرة)

محمد علي: (غير مكترث بتصرف المحكمة) الآن أيها السادة المحلفون..

رئيس المحكمة: لا تقاطع المحكمة.

محمد علي: إنني لا أقاطع المحكمة، بل الحق أنكم أنتم الذين تقاطعونني، لابد لي من مناقشة ذلك الاستثناء والبحث فيه، أبطلوا التهم الموجهة بموجب المادة 505 والمادة 117 إن شئتم حتى أكف عن المرافعة، فإن لكم أن تعدّلوا في الاتهام حتى النهاية.

رئيس المحكمة: لا أستطيع أن أسمح لك بشرح القانون الديني هنا.

محمد علي: إنني أشرح القانون الأرضي كما تدعونه لا القانون الديني، إنني أبين للمحلفين أن البيان الذي أعلناه مشتملاً على القرار حق لأنه مستند إلى القرآن والحديث.

رئيس المحكمة: لا لزوم لذلك.

محمد علي: إن الذي يقدر الضرورة أنا لا أنت. إنك لم تكف المدعي العام عن مرافعته إذ كان يثبت ما يراه ضرورياً، أفلا تدعني أثبت ما أراه أنا ضرورياً؟

إنني لا أحب أن أخلق المنافرات، فلست هنا لهذه الغاية، ولا أود أن أكون عنيداً صفيق الوجه؛ ولكني لا أرضى باهتضام حقوقي.

رئيس المحكمة: ولكنك تستغرق وقتاً طويلاً جداً.

محمد علي: لقد وعدتني أمس بنصف ساعة تسمح لي فيها بالبحث اليوم في تفوق الشريعة الدينية قبل مناقشة النقاط القانونية ووقائع القضية، إنني أقول إن الدين يُستثنى في كل الأحوال، والآن عليّ أن أثبت في مناقشة القانون الأرضي – المادة 505– وأن ذلك حقيقة صادقة ينطبق عليها الاستثناء في المادة 505.

رئيس المحكمة: افترض اعتبار صدق ذلك.

محمد علي: ليعتبر صدقه المحلفون، وليقرروا بذلك كتابة، قولوا إن هذا الأمر قد ثبت لنا حتى أدع هذا الموضوع دون مناقشة، واسألوا المدعي العام إن كان يرى أني محق بذلك.

المدعي العام: نحن نقرر أن الآيات التي وردت في المذكرة التي تليت على المحكمة الابتدائية من القرآن.

محمد علي: إني أريد أن تقرروا زيادة على ذلك أن هذا البيان الذي اتهمت بسببه بموجب المادة 505 موافق للقرآن والسنة.

المدعي العام: لا نستطيع إقرار ذلك.

محمد علي: إذن فعليّ إثباته لنفترض أن مسيحياً اتهم في إصدار بيان على عقيدته في الأب والرب الابن والرب الروح القدس، إنه حينئذ يحتج بإثبات صحة بيانه من العقيدة المسيحية، ويقول: إنني أثبت ذلك من التوراة والإنجيل، وأبينه من رسائل الحواريين وكتاب الصلاة، أترون أن ليس له الحق أن يفصل ذلك؟! أأكون _أيها المسلم – قاضياً عادلاً إن منعته ذلك؟ أتظنون أنني أعدل إذ أمنعه أن يثبت أن بيانه صحيح عن التثليث في العقيدة المسيحية؟!

رئيس المحكمة: (يومئ برأسه) اجلس مكانك.

محمد علي: لا أجلس أو تعتبروا بياني صحيحاً! إنني لا أود أن أكون عنيداً أو لجوجاً بغير سبب، ولكنسي على أي حال أريد الوقوف على حقي غير منقوص.

رئيس المحكمة: إنك تضيع وقت المحكمة.

محمد علي: إنني لا أضيع وقت أحد، إنما أريد إقناع المحلفين أن البيان صحيح.

رئيس المحكمة: ذلك لا يهم.

محمد علي: ذلك مهم جداً في نظري، إنه في غاية الأهمية عندي أن يثبت للسادة المحلفين أن البيان متفق والقرآن والحديث وأنه ليس من ابتداعي.. وما القضية بعد كل هذا؟! إني لا أطلب الحماية لجريمة قتل اقترفتها ولا لتحريق بيت تعمدته، ولا لنهب أقدمت عليه، إن القتل تنتفي عنه صفة الجريمة حين يأمر به القائد، والنهب يصبح سائغاً عندما يدعو إليه القائد، وهنا في هذه القضية ليس القتل جريمة ما أمر به القرآن؛ وعلى ذلك فعندما أعزو شيئاً إلى القرآن، فإن لك أن تقول: أرني ذلك.

رئيس المحكمة: افرض أننا نقبل ما تقول به جدلاً.

محمد علي: أريد أن تقبلوا قولي لكل الاعتبارات. قد أدع المناقشة بالمرة في أمر القصد والنية في هذه المادة إذ أنني لا أتكلم دفاعاً عن نفسي أيها السادة، ولكن لابد من أن أثبت أن هذا البيان صحيح، لقد واجهت نفس الصعوبة عند صديقي مونتاجو (MONTAGUE)إذ قال: إنني يا سيد محمد علي لا أدخل في مناقشة بشأن عقيدتك، ولكني دعوته إلى ذلك، ولقد دمعت عيناي عندما قلت له أنه ليس مما يسرني مخاصمة الحكومة، وقد احترم تلك الدموع فشرحت له الشريعة الإسلامية في الخلافة وكان عليه أن يصغي، ولقد شرحت شريعة ديني لمستر لويد جورج أيضاً، وكذلك

لبعض أعضاء البرلمان الآخرين، فلم يقولوا لا دخل لنا فيما ينص عليه القرآن.

إنني أريد أن أثبت أن هذا بيان صحيح وليس لكم أن تمنعوني هذا الحق في الإثبات، فهل تسمحون؟؟

رئيس المحكمة: فقط إذا شئت أن تفعل ذلك بصورة مختصرة جداً.

القاعة تضج بالضحك

محمد علي: ولم لم تقولوا ذلك من قبل؟! طبعاً سأفعل ذلك بصورة مختصرة، بل في غاية الاختصار!!

. . . بعد تلك المشادة العنيفة بين مولانا محمد علي ورئيس المحكمة ختم محمد علي مرافعته التاريخية بما يلي:

أيها السادة:

لست أدري إذا كان الجندي ممنوعاً من تحكيم تقاليده الخاصة أمام واجباته العسكرية، فإن هذا النموذج (قائمة الأسئلة المطروحة بالتطوع) يحوي مجرد سؤال بخصوصها، ولا ندري ماذا يحصل للمتطوع الذي يجيب عليه بالإيجاب معتبراً تقاليده الخاصة.

كتب دانتي[11] في (الجحيم) وكذلك أورد ملتون[12] في كتابه (الفردوس المفقود) أنه مكتوب على باب جهنم هذه العبارة (على كل من يدخل هنا أن يترك كل عقيدة خلفه، ولقد قال المشير الألماني[13] في مناسبة مشهورة الحاجة لا تعرف القانون! وها نحن نرى الذين ينددون بهذه القاعدة غير القانونية يعاقبون كخارجين على القانون! إن كل ما نريده أن تكون الحكومة شريفة مستقيمة في هذا الشأن، أن الناس ينضمون إلى الجيش حالياً وعيونهم مغشاة، ونحن نريد أن نزيل هذه الغشاوة عن العيون ليدخل الجيش من يدخل وهو يعلم أن شريعته وتعاليم دينه لن يكون لها فيه أي اعتبار، وستهدر المطالب العسكرية ضحية لمولوخ[14] المسعور، وإن نداء الملكة وإعلاني الملك لن تقدم لهم أية حماية، وحينئذ لا يلوم الحكومة أحد، والذنب من بعد ذنب!! أولئك الذين يعلمون كل ذلك ثم يتطوعون في الجيش!

ثم ما الذي تطلبه الشريعة الإسلامية اليوم؟إنها لا تلتمس حماية القانون العلماني، إذ لا تطالب بالضحايا البشرية، إنني لا أقول اقتلوا

---

[11] شاعر إيطالي في القرون الوسطى

[12] شاعر إنكليزي

[13] بسمارك

[14] سبق أن قلنا إن مولوخ إله العمونيين، وكانت تقدم إليه القرابين من البشر

ضباطكم رمياً بالرصاص، لا ، بل على العكس، إنني أطلب ألا تبيحوا لهم اقتراف جريمة قتل الأخ لتقديم القرابين البشرية من إخوانهم لقتال الألمان في أن يقاتلوا معكم، وكذلك لا أقول إن وقع اضطراب في كراتشي وأخل المسلمون بالأمن يجب على الجندي المسلم ألا يذهب للمحافظة على النظام..

لقد ورد في هذا النموذج جميع أنواع الأسئلة، ويقول النموذج (الأسئلة التسعة التالية) إلا أن هناك في الحقيقة أربعة عشر سؤالاً لا تسعة (يقرأ الأسئلة) إنني لا أدري ماذا يحصل إن أجاب المتطوع أنه يأبى أن يطعّم بلقاح الجدري البقري كما قد يفعل بعض الهندوك باعتبار اللقاح أو الليمفا من البقر، ويعلن المتطوع بأن إجاباته صحيحة، وأنه مستعد للقيام بالواجبات المطلوبة دون بيان هذه الواجبات!

ولنفرض أنه عبّر عن رضاه بأن يحقن بلقاح الجدري وأن يذهب حيثما يؤمر براً وبحراً.. إن السؤال الخامس عشر الذي كان يجب أن تضمنه القائمة (هل أنت مستعد لأن تفعل أي شيء تؤمر أن تفعله، وألا تدع تعاليم دينك تتدخل في واجباتك العسكرية؟ هل أنت عازم على إغفال أمر الدين؟.. لا أرى هذا السؤال في هذا النموذج..

إن أجاب المتطوع عليه بنعم (فلا بأس) وإذا لم يقبل فلكم أن ترفضوه، ولكنكم لا تسألونه هذا السؤال ولا تستطيعون أن تفعلوا ذلك لما فيه –حسب رأيكم– من الصرف والفتنة عن الواجب، ولقد قلت آنفاً إن واجبه الأول طاعة الله، ثم بعد ذلك يلتزم للوطن والملك.

أيها السادة المحلفون:

إن نداء الملكة قد جاء كما تعلمون على أثر مسألة الذخيرة المشحمة بدهن الخنزير والتمرد بسببها، وإنما كان ذلك النداء لتفنيد زعم ذلك الشمول غير المحدود لما تعنيه (الواجبات العسكرية) المقررة سنة 1858، ولكن ما أهمية قطع غلاف الذخيرة المشحم بدهن الخنزير بالأسنان، أو حتى أكل الخنزير بكامله بالنسبة إلى خطيئة قتل المسلم؟!لقد قلت في مذكرتي للمحكمة الابتدائية ولا أزال أكرر: إنه إذا أكره المرء تحت وطأة التهديد بالموت على أكل لحم الخنزير فليس له فقط أن يأكل اللحم، بل يتحتم عليه حينئذ أن يأكله، وإذا قتل لرفضه قتل خاطئاً، وكذلك يستطيع أن يعلن أنه كافر ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان، والخير ألا يفعل فإذا قتل لإصراره على

الرفض مات شهيداً؛ غير أنه لا يستطيع أن يقتل أو يجرح مسلماً ولو أكره على ذلك، وعليه أن يمتنع ولو أدى تمنعه إلى قتله.
إنكم لا تستطيعون أن تطلبوا من مسلم مس الذخيرة المشحمة بدهن الخنزير باعتباره من واجبه العسكري لما خبرتم سنة 1858 ولنداء الملكة سنة 1858، ثم لا تزالون تدّعون أن من الواجبات العسكرية قتل المسلمين الذي هو أشد فظاعة بدرجات من أكل لحم الخنزير، بل من التظاهر بالارتداد عن دين الإسلام! إن إغفال مثل هذا السؤال الذي اقترحت يعني أن الحكومة تعلم ما يؤدي إليه، لذلك فإننا نعتبر أن من واجبنا تذكير الجندي المسلم بواجبه أمام الله، وأن نطلب من المسلم أن يطبق شريعة الله، وليس يعتبر ذلك صرفاً له عن واجباته في الجيش على أي حال، فإنه لا يحتاج لذلك أن يترك واجبه أو أن يقصر فيه، وكل ما هنالك يطالب ضباطه المسؤولين ألا يطالب بتنفيذ الواجبات المعينة التي لا يقرها الإسلام.. وعلى ذلك فليس هناك احتمال، ولا قصد لصرف الجنود عن واجباتهم.
أيها السادة المحلفون!
إنني لست حريصاً على الإفراج عني ولا عن الدفاع عن نفسي، إنني أقوم بأي دفاع، ومع ذلك فعليّ أن أوضح لكم قانون الإسلام، وعلاقته في الوضع الذي اتخذناه.
إنني لم أناقش شهود الإثبات، ولم أقدم النفي بالنسبة لشخصي، ولكنني أريدكم في الأعم الغالب من بني وطني، وإن كنتم تتعاونون مع هذه الحكومة، أن تعتبروا ذلك لقد أجريت في تاريخ العالم محاكمات هامة، وكثير من العظماء حكم عليهم بتهم متعددة، وفي التاريخ الإنكليزي نفسه قتلت جان دارك إذ حكم عليها بأنها ساحرة. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ إن تمثالها الذهبي منصوب أما الفندق الذي كنت أسكنه في فرنسا، وقد أقامت لها الكنيسة الكاثوليكية لما كنت هناك قداساً برئاسة البابا وكلية الكاردينالات.. وأحفاد أولئك الذين حرقوها ماذا فعلوا؛ لم اشترك الجيش البريطاني مع الفرنسيين في إحياء ذكراهما ووضع أكاليل الزهور على تمثالها؟. . إني رأيت بنفسي ذلك الاحتفال.. لقد كان جورج وشنطن ثائراً شقياً في زمن جورج الثالث، فما هي نظرة الحكومة البريطانية إليه اليوم؟ إنه أخلص وطني!
أحب أن أوجه ملاحظة أو ملاحظتين، خصوصاً للإنكليزي في المحلفين، إن الأفراد الإنجليز غير ملتزمين باتباع مواطنيهم، خصوصاً في الظلم والزيغ عن الحق، لقد كانت الأقلية خلال التاريخ الإنجليزي كله في الغالب إلى جانب الحق، ولم تزل الأقلية دائماً

هي التي تبدأ الحركات الإصلاحية العظيمة، إذ لم تبدأ قط أكثرية عملاً لهدف مجيد.

إنه لم يكن بيلاطس الذي حكم عليه بالصلب، لقد كان المسيح عليه السلام، وقد كان بيلاطس القاضي الذي حكم بصلب المسيح، ولكن من الذي ينطق بالحكم الآن ومن ينطق بالحكم فيما بعد؟ هناك، في الآخرة، يوم الدين سيقضي الله بحكمه على بيلاطس الذي ضل سبيل الحق، ولكن أين بيلاطس الآن؟ من ذا الذي يذكره.. قاضي الصلب العظيم.. إلا لحكمه بصلب المسيح..؟ إن المسيح الآن في نظر الملايين من البشر هو المخلص، ولكن من أكون – أيها الفرد المتواضع– حتى أقارن نفسي بالسيد المسيح.. أنا الذي لست أهلاً حتى لإزالة الغبار عن قدميه، ولكن كما قال الشاعر:

لا يلزم الضعف أن يكون خداعاً

فالصدق صدق في كل درجاته

بقدرة الله دوى الرعد للطبيعة

وهمس بواسطة روحي إليّ [15]

---

[15] Weakness never need be folsness
Truth is truth in each degree
Thunder pealed by god to nature
Whispereb by my soul to me

وفي دوي مدافع الهوتزر البريطانية همس الصوت لهادئ الضئيل المنبعث روح رجل متواضع في أذنه – الروح الإلهي نصير الحق– هذه القطعة الصغيرة من الصدق:

إنه يجب ألا يقف مكتوف اليدين ينظر إلى المسلمين يقتلهم رغم نهي الله الصريح، ولابد أن يدعو لوقف ذلك، وينادي بالحق، لا يرهب أحداً من البشر أو يهاب صروف الحياة الدنيا.

أيها السادة، خذوا شهداء كربلاء مثلاً آخر: لقد كان مع حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنان وسبعون رجلاً فقط، وكان جيش يزيد يعد بالآلاف، وقد قتلوا الحسين حينئذ إذ كان في قلة، إلا أن السخط لا يزال في النفوس على ذلك الفعل الشنيع – فعل الحكومة صاحبة السلطان – منذ ثلاثة عشر قرناً، إن كل مسلم يهتز بالعاطفة لشهيد كربلاء، وليس ليزيد المنتصر المزهو،الذي لا يعرف له قبر في أي مكان.

وهكذا أيها السادة، لا تفكروا في آثار قراركم اليوم أو غداً، ولكن في آثاره في المستقبل في حرية البشر، وكذلك في العالم الآخر يوم الحساب، يجب أن تحتكموا لأنفسكم، إذ لا يغني عنكم أحد من رؤسائكم.. إن لويد جورج لا يغني عنكم شيئاً فسيحاسب الله لويد جورج عن نفسه لا عن أنفسكم ولعله يطالبه بالكثير..

وسيسألكم الله كذلك عن أنفسكم فرادى ولا يسألكم عن غيركم! أما إن كنتم تعتقدون اعتقاد الهنود بالعقاب في الحياة الدنيا في دورة تناسخ الأرواح، فيجب أن تذكروا أنه بموجب عقيدتكم سينفذ حكم الله فيكم في هذه الحياة الدنيا، وستحاسبون ساعة تترك روحكم منزلها من جسدكم لتلتمس منزلاً آخر.. ومهما كانت عقائدكم فليس الحكم النهائي لكم، كما أنه ليس للقاضي ، إن الحكم إلا لله العلي الكبير.

أيها السادة، لقد أخذت كثيراً من وقتكم.. أكثر بكثير مما قصدت أو مما كنت آخذه لو لم أكن أقاطع أو أوقف باستمرار، وكما قلت في بدء كلامي، لو كان الأمر دفاعاً عن نفسي كفرد أو عنا كمتهمين فقط لما ترافعت هذه المدة الطويلة وبهذا الإصرار، إنني لا أبتغي تفادي العقوبة، فإن السجن هو سبيل حرية الهند الوحيد.. ولو أردت دحض الادعاء بكامله لأثبت براءتي بحسب مواد هذا القانون نفسه – القاضي الأرضي المزعوم – لكان بوسعي أن أناقش شهود الإثبات وأمزق ادعاءاتهم تمزيقاً، حقاً، لقد اضطررت إلى أن أفعل ذلك في مسألة الكولونيل جوير وأسئلته الخاصة بتسجيل المتطوعين وواجب الجندي من حيث هو كواجب.. أظن أنني أستطيع أن أقول ذلك وإن كنت لا أحب أن أبدو قانونياً كبيراً كصديق المدعي العام أو مساعده الصغير.

إذا كانت رؤوس أهل الحل والعقد تنتزع بسبب إظهار الإسلام وإعلان شريعته، ثم يسأل الباقون عن رأيهم في الشريعة الإسلامية، فذلك لا يعني إلا أن دورهم سيتبع لملاقاة نفس المصير إن هم تجرأوا على أن يقولوا الحق، وستكون النتيجة ألا يقف أحد لمجابهة إرادتكم، وبعد ذلك تتبجحون بقولكم: إننا لا نتدخل في عقائدكم!!

فإن لم يكن هذا تدخلاً فإن لكم أن تزهوا بالعجب الذي يوحي به هذا الادعاء بالتسامح المزعوم!

إنني أيها السادة لا أستطيع أن أسير على نهج قاضي قضاة بريطانيا أو نائب الملك في الهند، إن له قانوناً يلزمه، ولي شريعة تلزمني، إن أمثال قومه – ولا أقصد فيما أقول إهانة – يدعو القرآن المسلمين دائماً إلى اجتنابهم وأن يكونوا منهم على حذر، وقد ورد في القرآن أنه بعد أن جاوز موسى عليه الصلاة والسلام ببني إسرائيل أرض مصر بسلام ونجوا من طغيان فرعون، طلب منهم السير إلى أرض الميعاد، فقالوا: (إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، وقالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون)

أيها السادة، ليس هذا هو المثال الذي يجب عليّ أن أحذو حذوه في شأن أرضي المقدسة، وما دام الأمر يعنيني، فإن القرآن هو

شريعتي، وسواء كان الجبارون أو لم يكونوا، فإنني سأقاتل حيث يأمرني الله بالقتال ، ولن أهدأ أبداً أو أسأله بنفسه الجبارين، وإن كان لابد من شنقي لذلك، لأنها ليست المادة 120(آ) أو (ب) هي التي تطبق على تلك الحالة بل 121: إعلان الحرب على الملك – فإنني سأظل أردد أن هذه هي شريعتي، وأنها شريعة حق، وحتى جثتي ستردد ذلك وهي معلقة على أعواد المشنقة!!

لذلك أيها السادة لا تفكروا في تخليصي من النفي مدى الحياة، وإن كان لكم إله، وإن كان لكم روح تسعون لنجاتها، وإن كان لكم عقيدة تؤمنون بها فستقررون ما تمليه ضمائركم، لا تعتبروا أنفسكم مستخدمين لدى رؤسائكم ولكن اعتبروا أنفسكم فقط أنكم عبيد لله وجنود .. كذا.. يجب ضمائركم فقط، وليس لإنقاذي ولكن لإنقاذ أنفسكم.

عندما قال القاضي (لا أسمح لك بذلك) وأراد مني أن أكف قلت له: لم إذن لا تكف هذه المهزلة وتأمر بشنقي في الحال وتستريح؟ لقد تبسم وأجاب أن الأمر بيني وبينه فقط، ولكنه بينه وبين الجمهور وقد أجبته أن الجمهور قد أعطى رأيه داخل القاعة، وكذلك في الشوارع حيث احتشد الناس بالآلاف لتحيتنا إذ تأخذوننا وإذ تعودون بنا، والنساء المسنات برزن مع تحجبهن: ومنهم والدتي، يومئن إلينا.

إن دفاعي أيها السادة إنما هو سبيل الله، ومن أجل مواطني، إننا الآن في قاعة هذه المحكمة كسجناء ومتهمين، ولكن عندما يجمعنا موقف الحشر أمام الله أحكم الحاكمين فالقاضي والمحلفون والمدعى العام ومساعده .. الملك نفسه، وكل إنسان يحشر ويسأل أمام الله: (لمن الملك اليوم) ماذا سيكون جوابكم؟

(إن الملك لك، إنه ملكوتك! إنكم تقولون إذ تصلون لله ليأتك ملكوتك، وقد أتى ملكوت الله .

أيها السادة.. لقد جاء ملكوت الله.. إن ملكوت الله هنا اليوم وفي هذه الساعة.. إنه ليس ملك الملك جورج، ولكنه ملكوت الله، وعليكم أن تتخذوا قراركم على هذا الأساس، وعليّ أن أتصرف على تلك القاعدة، ولذلك أقول أنني أتبع قانون الملك جورج ما لم يجعلني على مخالفة أمر ربي!

ليس في نفسي حقد على الملك، وليس حتى على القاضي في نفسي شيء من ذلك، ولا على الحكومة؛ولا يمكن أن يثبت ذلك من أي موقف في خطبي العامة.

لا أيها السادة، يجب أن نعمل بدافع من المصلحة العامة لا من الأحقاد الشخصية..

لقد غضب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي كرّم الله وجهه على يهودي تهجم على الإسلام ورب الإسلام وعقيدة الإسلام، فوثب عليه علي ليقتله، وأيقن اليهودي بالموت، ويئس نهائياً من الحياة فبصق في وجهه..

أرأيتم وعاء مملوءاً باللبن على النار يكاد يفور، فيهدأ حالما يضاف إليه قليل من الماء؟.. لقد كان أثر بصقة اليهودي كذلك تماماً، إذ هدأ غضب علي في الحال عجباً، وترك اليهودي ومضى، ولكن اليهودي كان من الدهشة لهذا التحول الفجائي بحيث تبع علياً حتى أدركه وقال له: إن أمرك في غاية العجب، لقد طرحتني حينما تفوهت بكلمة وهممت بقتلي، حتى إذا بصقت في وجهك يائساً تركتني؟! فأجاب علي: لقد تجرأت على حرمة الله وكنت لذلك قاتلك، فلما بصقت علي غضبت لنفسي، ولا يتفق الحقد الشخصي والواجب العام.

إن لي أن أكون سيافاً لله لا قاتلاً من أجل علي!!

أيها السادة، كلانا يحمل اسم علي الكريم، وإنني أحمل أيضاً اسم من هو أعظم من علي، وإنني لن أقف موقف القاتل بسبب الأحقاد الشخصية حتى في قتل الجبارين، ولكنني في سبيل الله أقتل كل من يأمر الله بقتله ولو كان ذلك أخي الشقيق أو أمي العزيزة أو زوجي أو أطفالي أو أي إنسان إرضاءً لله فعونك يا رباه!!

* * *

(وهنا خان مولانا محمد علي صوته وتحدرت قطرات من الدمع على وجنتيه، وجلس في نصر مبين)